الحركة الإسلامية في السودان

- حوارات مع الدكتور حسن الترابي
- خطاب الدكتور حسن الترابي في المؤتمر الثاني للجبهة الشعبية السودانية

الحـــوار الأول

أجراه الأستاذ محمد الهاشمي الحامدي

(في صيف سنة ١٩٨٧)

تقديم

هذا حوار مطول أجريته مع الدكتور حسن الترابى فى أغسطس (آب) ١٩٨٧ بالخرطوم ثم نشرته على ثلاث حلقات فى (٢٦ يونيو ، و ٣ ثم ١٠ يوليو ١٩٨٨)، وباقتراح من الناشر ومن أصدقاء آخرين قدرت بعض الفائدة فى نشر الحوار مكتملا فى سفر واحد .

لقد أقمت فى السودان عاماً ونصف العام ، وهذا دون شك أحد أبرز أسباب اهتمامى – أناالتونسى المغربى – بقادة الرأى والفكر السودانيين – وخلال تلك الفترة تعرفت عن قرب إلى الدكتور حسن الترابى .

يتميز قادة السودان عموماً بالخاصية المعدومة للأسف لدى نظرائهم فى أكثر بلاد العالم ، أعنى صفة التواضع – لذلك لم يكن عسيراً جداً أن أحفظ المسالك الكفيلة بالتعرف تعرفاً عميقاً وحقيقياً إلى الترابى – لقد قرأت له واستمعت إليه وجالسته عن قرب وحاورته مرات وجادلته جدالاً ، ولأنه لم يكن فقط مفكراً وقائداً سياسياً وإنما أيضاً عالماً وداعية للإسلام فإنه قد تحمل بصبر كل مضايقاتى كصحفى يبحث عن مادة متميزة وكإسلامى يقارن تجارب السودانيين العاملين فى الحركة الإسلامية إلى تجارب نظرائهم فى العالم العربى – وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأعتذر له ولأشكره ولعله يفهم أن غايتى لم تكن سيئة .

لماذا الترابى ؟؟

قد يكون مفيداً أن يدرك القارى لماذا هذا الحوار مع الترابى – إن مرد الأمر يعود باختصار إلى شخصية الترابى أولاً وإلى طبيعة الموضوع ثانياً .

ولد الترابى فى ١٩٣٢ بكسلا فى عائلة متدينة ، وبالإضافة إلى حصيلته فى المدارس النظامية تلقى من أبيه علوم اللغة العربية والدين كما حفظ القرآن الكريم . وفى أواخر الخمسينات تحول إلى لندن وحصل على درجة الماجستير فى القانون من جامعتها ثم إلى باريس حيث انتسب إلى جامعة السوربون وأحرز منها درجة الدكتوراه بنجاح ، وقد أهله هذا التفوق العلمى إلى تولى منصب العمادة فى كلية الحقوق بجامعة الخرطوم حتى اشتعال ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وعودة النظام الديمقراطى إلى السودان – فى تلك الفترة أصبح الترابى الرجل الأول فى الحركة الإسلامية بالسودان معوضاً الرشيد الطاهر الذى غادر صفوفها نهائياً – لقد أبدى منذ ذلك التاريخ المميزات التى ضمنت له دوراً غير عادى فى ساحة العمل السياسى ببلاده ، وفى ساحة العطاء الفكرى داخل السودان وخارجها .

كان رجلاً منقطعاً إلى فكرته ، عالماً بالإسلام وخبيراً بحضارة العصر التى تقلب بين عاصمتيها البارزتين ، وكان ذا شخصية طاغية موجّهة بالإضافة إلى موهبة كبيرة فى الخطابة وفصاحة فى اللسان – لكن هذه المؤهلات كلها لم تكن لتفسر حضوره المستمر فى

الساحة الإسلامية لولا صفة أخرى حفظته دائماً عن أن يصبح مجرد سياسى طموح – لنقل أنها الورع والزهد فى المتاع الذى كثيراً ما أودى بالسياسيين .

لقد تقلب الترابى أو تقلبت به أقداره السياسية من البرلمان إلى السجون ، ومن السجون إلى الوزارة – دخل البرلمان أميناً عاماً لجبهة الميثاق الإسلامى أثناء الديمقراطية السودانية الثانية ١٩٦٤ – ١٩٦٩ وعندما جاء النميرى والشيوعيون إلى الحكم فى مايو ١٩٦٩ أُخذ إلى السجن حيث قضى فيه زهاء سبعة أعوام . إن الترابى لا يذكر لمحدثيه تلك الفترة إلا بما أتاحته له من فرص تمتين صلاته بأمهات المؤلفات الإسلامية فى التفسير والحديث والأصول ، فضلاً عما وفرته له معرفته بالفرنسية والألمانية والإنجليزية من متابعة التطورات فى مركز العالم المهيمن . والحقيقة أنه لم يجد مبررات كثيرة للقلق على مصير حركته ، فقد أفلح زملاؤه الذين توزعوا بين الداخل والخارج فى تمتين صلاتهم بالانصار والاتحاديين ضمن الجبهة الوطنية والضغط على نظام الحكم للتخلى عن خياراته وتحالفاته الشيوعية ، وكان لقاء السيد الصادق المهدى بالنميرى فى بورتسودان سنة ١٩٧٦ إيذاناً ببدء مرحلة المصالحة الوطنية ، وفى هذا المناخ خرج الترابى إلى ساحة العمل العام من جديد ، ولئن تراجع صهره السيد الصادق المهدى عن التعاون مع النظام فى نهاية السبعينات ، فإن الترابى وأصحابه حافظوا على علاقتهم بنميرى إلى مارس ١٩٨٥ حين عاد النميرى فاعتقل القيادة وتردد أن الترابى كان مرشحاً للإعدام ، لكن نجاح انتفاضة أبريل من العام نفسه فتحت عهداً جديداً فى الساحة السياسية بالسودان .

عمل الترابى بعد الانتفاضة أميناً عاماً للجبهة الإسلامية القومية وحصل حزبه فى أول انتخابات برلمانية حرة سنة ١٩٨٦ على ٥٤ مقعداً بوأته زعامة المعارضة لعامين ، ثم دخلت الجبهة حكومة الوفاق الوطنى فى يونيو الماضى (١٩٨٨) مع حزبى الأمة والاتحادى الديمقراطى ، وهى مرحلة جديدة لم تمض عليها حين كتابة هذه السطور إلا أسابيع قليلة .

* * *

ومع هذا السجل السياسى الثرى ، فإن الذى يعنينا هنا من الرجل وجه العالم المفكر – لقد استطاع الترابى أن يبلور على مدى الزمن مساهمة متميزة فى دفع حركة الفكر الإسلامى المعاصر دون أن ينقطع عن الحديث أو عن التزاماته الحركية داخل الصف الإسلامى . ومن خلال كتاباته ومحاضراته العديدة فى السودان وخارجه ميز الترابى لنفسه نمطاً خاصاً من التفكير والاجتهاد ، يجمله الأستاذ عمر عبيد حسنة فى كتابه الأخير « فقه الدعوة ملامح وأفاق » العدد رقم (١١٠) فى سلسلة كتاب الأمة سنة ١٤٠٨ كما يلى : .

■ يؤمن بالحوار والتفاعل مع الجميع بعيداً عن السذاجة الفكرية ، دون أن يتخلى عن أرضيته .

■ أكسبته التجارب والنزول إلى ساحة الواقع القدرة على الفهم ، وإبداع أفكار ومصطلحات ، تعبر عن المراحل ، وتحولها إلى أعمال ، وتجسدها فى حياة جماهير الأمة (التزاوج بين المنقول والمعقول) دون

التوقف عن النظر إلى المستقبل ، واستشراف أبعاده من خلال الواقع الممكن .

■ كما أكسبته التجربة القدرة على إشاعة مفهوم الأخوة الشامل ، وتعبئة الجماهير المسلمة استجابة للخطاب الإسلامى العام ، والارتكاز فى الوقت نفسه على النخبة المثقفة لأنها تشكل عقل الأمة وطليعتها .

■ ويرى : أن الدين توحيد بين المثال المطلق والواقع النسبى ، فالمثال ترسمه التعاليم والتكاليف الشرعية ، التى يخاطب بها الإنسان ، والواقع هو الإبتلاءات المادية والظرفية التى تحيط بدنيا الإنسان ، والتدين هو إيمان نفسى بمثال الحق المطلق ، ثم كسب تاريخى يجاهد الواقع ليقربه من المثال ، ويجسد الإيمان فى أمثل صورة واقعية ممكنة ، ومن ثم المحاولة الدائبة للرقى نحو كمالات المثال .

■ كما يرى : أن الصراع فى أفريقيا صراع حضارى بين العروبة والإسلام من جهة ، وبين الشرق والغرب من جهة أخرى ، وإذا أصبح السودان عربياً مسلماً خالصاً ، سيقلب موازين القوى فى المنطقة .

■ ويرى : أن العرب والمسلمين متمكنون من ثروة مقدرة تنفق فى شتى المجالات ، ثم لا يرى شيئا مقدرا يوجه نحو مد الدفع الثقافى العربى الإسلامى بالرغم من أن الملايين من المسلمين فى أفريقيا وآسيا يتطلعون إلى تعلم اللغة العربية والاستزادة من علوم الدين ، وأن

الملايين الآخرين من ذوى المعتقدات غير الكتابية مهيأون لتقبل الدعوة الإسلامية بيسر شديد ، وأن حرية الدعوة الإسلامية أوسع بكثير من المحاولات التى تستثمر ذلك الظرف .

■ ويقول : إن كثيراً من أبناء المسلمين بسبب من ضغوط التعليم والترقى الاجتماعى ، انخرطوا فى ملل غير إسلامية أو ذابوا فى الحضارة الغربية ، والحاجة اليوم شديدة لاتخاذ استراتيجية مشتركة لمجابهة هذا التحدى الذى لا تجدى معه الصداقات والمشروعات المحدودة .

■ ويرى : أن المرأة المسلمة تحكمها التقاليد والأعراف القديمة التى تظلمها وتحبسها عن المشاركة فى الحياة تحت اسم الدين ، وعلى حسابه ، لذلك لابد أن تُستظهر المرأة المسلمة بقوة شرعية تضفى على مشاركتها الشرعية وترشدها ، وتضبطها فى الوقت ذاته .

وأن العجز عن إيجاد الأوعية الشرعية لخروج المرأة وإعطائها حقها فى الحياة الإسلامية هو الذى استدعى صور الخروج بعيداً عن الاستظهار بقوة الشرع .

■ ويرى : أن البناء الدينى يقوم على الإخلاص والاختيار الطوعى ، ولا يمكن للقوة فضلا عن العنف أن تكون أداة لتحقيق هذا البناء .

■ وأن الصحوة الإسلامية ظاهرة تاريخية دورية : يصيب المسلمين ذبول فى دوافع الإيمان ، وخمول فى الفكر والفقه ، وجمود فى الحركة ، فينحط كسبهم ، ثم تستفزهم أزمة السقوط ويحضهم

الوعى بالانحطاط عن أمجاد سالفة ، والذل إزاء تحد خارجى فينهضون من جديد .

وأن مظاهر هذه الصحوة لا يمكن أن تردّ إلى محاور النشاط الإسلامى المنظم فقط لأنها غدت تياراً فكرياً جماهيراً سائراً . والصحوة ليست مستوطنة بأرض العرب وحدها ، فالإسلام ميراث مشترك للأمة الإسلامية .

وأن الصحوة جاءت استجابة لظروف غشيت العالم قاطبة : انحسار الاستعمار السياسى ، وانكسار الغرور الحضارى الغربى ، وخيبة النظم اللادينية ، وحركة الوعى الإسلامى .

■ ويعتقد : أن المجتمع المسلم برغم صحوته المباركة ، لايزال يعانى من نقص نسبى فى المجال الفكرى والتنظيمى ، ومن أكبر الخطر أن تنطلق طاقات الإيمان فلا تجد الهداية الفكرية والأوعية التنظيمية فتتبدد سدى ، أو تضل ، أو تتخبط ، أو تتوجه صوب الانحراف .

ولابد للنهوض من استكمال شروط اليقظة الروحية ، والصحوة الفكرية ، والنهضة الحركية ، وبذلك نكون قد استكملنا توبتنا من ماضى الانحطاط ، واستقبلنا توجهنا نحو دورة حضارية تتقدم بالمسلمين ونقدمها إلى العالم أجمع .

■ كما يعتقد أن المناخ السياسى القهرى شغل الصحوة الإسلامية بأصل وجودها ، وصرفها عما وراء ذلك ، وحرمها من الحرية التى

هى شرط النشأة ، والحياة ، والتطور لكل صراع فكرى منزل على الواقع ، وحال بينها وبين الحوار الداخلى والخارجى .

■ ويرى أن الفقه السياسى عامة فى الإسلام قد اضمحل مبكراً . بينما كانت وجوه الفقه الأخرى تزدهر قبل أن يطبق الجمود الشامل على الفقه كله . ويعلل ذلك بسبب من الفتنة السياسية المبكرة التى خرجت بالسياسية من نيات الدين ، وضوابط الشرع ، وباعدت بين الفقهاء والسلطان .

■ ويرى : أن حكومات المسلمين مدعوة – بحق الدين وبالمصلحة فى الاستقرار السياسى – إلى أن تتخذ سياسة أرشد نحو الإسلام ، وألا تلجئ الإسلاميين إلى الصراع السلبى .

وأن الدول الاستعمارية مدعوة كذلك أن تتعقل لأنها لن تستطيع مغالبة التطور الإسلامى المتقدم ، وقد تضره قليلا بمصادمته المباشرة أو بإغراء حكومات المسلمين به ، لكن الأمر فى النهاية سيؤدى إلى تصاعد الجهاد .

■ ويعتقد : أن الديمقراطية إذا طرحت بشكل صحيح فإن غالبية الشعب سوف تجنح نحو الإسلام لأن الشعوب مسلمة بفطرتها ، لذلك فإن المؤامرات لإقامة أنظمة عسكرية ، أو قهرية ، القصد منها سد الطريق أمام الشعوب المسلمة بشريحة مغتربة عنها .

■ ويرى فى الواقع العربى اليوم : إنه لابد لفقه الصحوة التوحيدى فى الوطن العربى أن يعقد حواراً مع مذاهب القومية

العربية التى تتجه أيضاً نحو الوحدة على الرغم من أن المناظرة كانت سلبية فى الماضى ، نظراً لما لاحظ دعاة الصحوة فى بعض دعاة القومية من إدارة الظهر للأمة الإسلامية ومن الافتتان بالمذهبيات الغربية اللادينية ، من علمانية ومادية فى العقيدة أو السياسة ومن كيد واضطهاد لدعاة الإسلام .

■ كما يرى : أن الدعوة القومية مهما انفعلت بعض أطروحاتها بالأصل العرقى أو الثقافى أو تأثرت بالحضارة الغربية المهيمنة فغالب المؤمنين بها شعوب تعبر عن فطرة القربى العربية ولا تتخذها خصماً لدينها بل تتحد بها مع دينها ، وبعض دعاتها وصلها بالإسلام صراحة لاسيما فى الآونة الأخيرة ... وفى الواقع العربى حاجات لتوحيد القومية مع الدين فالعاطفة القومية مهما دعمتها المضامين المبهمة التى تطرح الآن لا تقوى وحدها على مغالبة أهواء الفرقة الإقليمية والسياسية ، ومكائد التفريق الإمبريالية .. وإخفاق مشروعات الوحدة الكثيرة ، شاهد على قصور دافع التوحيد القومى ، إلا أن يعزز بدافع التوحيد الدينى الفعال .. والقومية وحدها لا تطرح مع الوحدة مضمونا هدفيا ومنهجيا شاملاً كالإسلام الذى يبرز معالم الحياة الموحدة المنشودة ومضامينها .

والإسلام يضيف إليها بعدا بفتحها على العالم وتوسيع قاعدتها الطبيعية بالتعريب ، ويبسط منها إلى العالم روحاً رسالية ، ومنهجاً إنسانياً يحمل مقومات الإصلاح والعدالة للمسلمين قاطبة وللناس كافة .

■ ويدعو القوميين إلى ملاحظة انحسار الدعوات ، وبوار المخططات الوحدوية ، وتفاقم الإخفاق والإحباط الراهن ليدركوا أنها أعراض لحالة مرضية جذرية لا يجدى فيها إلا علاج حضارى أصيل تلتمسه الأمة فى حق قيمها وعبر تراثها الإسلامى .

كما يطلب إلى دعاة الإسلام أن يدركوا أن وحدة العرب – مهما اختلطت دوافعها الأولية بل حتى لو انطوت على بعض نكسة لحرية الدعوة الإسلامية وتقدمها فى المدى القريب – تبقى ذات مغزى تاريخى كبير للإسلام فسيذهب الزبد جفاء ويبقى العرب للإسلام وإذا عزّوا بالوحدة فسيصب عزهم عاجلاً وأجلاً فى عز الإسلام .

■ ولذلك كله يرى : أنه لا يجوز للعاملين فى الحقل الإسلامى أن ينقلبوا إلى طوائف منفصلة عن جسم الأمة وأهدافها العامة ، يعكفون على خاصة أمرهم ويعجبون بتراثهم ، بل لابد لهم من أن يحاولوا العمل فى جبهة عريضة تضم كل من ينفعل بالقضية الإسلامية .

■ ويعتقد : أن حصر قضية الإسلام بجماعة أو حزب ، أمر يثير غيرة القوى السياسية الأخرى وولاءها التاريخى .

وأنه لابد للعاملين فى الحقل الإسلامى من التوغل فى أوساط الجماهير ، والتفاعل مع الفطرة المؤمنة لتوليد الطاقة الشعبية التى تحمل الهم الإسلامى العام وبناء العلاقة المتفتحة مع حركة الإسلام الشاملة ، وإقامة دبلوماسية شعبية يمكن لها أن تزيل عجز التواصل بين المسلمين ، وأن العمل الدعوى يمكن أن يتم فى إطار الحياة الواسعة

والأطر الطبيعية للحياة الاجتماعية ، فى معاهد العلم والمساجد ومراكز الثقافة الشعبية وأجهزة الإعلام والعمل السياسى .

■ هذه بعض النوافذ البسيطة التى يمكن أن تشكل إطلالة سريعة على التصور الذى يتمتع به الدكتور الترابى للعمل الإسلامى ، وهى لا تغنى بالطبع عن ضرورة الإحاطة بمعرفة تطور التجربة وكسبها فى مختلف الميادين ، ذلك أنه لم يتوقف عند مرحلة التنظير والكلام فى المبادىء وإنما تجاوزها إلى محاولة تنزيل الإسلام على واقع الناس والاجتهاد فى وضع البرامج ، ويمكن أن تعتبر هذه التجربة وفى مجال فقه الدعوة نقلة نوعية متميزة فى فهمها للواقع وقدرتها على قراءة الظروف بأبجدية إسلامية وإبراز المشروع الإسلامى فى هذه المرحلة .

ولا شك عندى أن الرجل يمثل تجربة غنية ورؤية متميزة ومتقدمة فى العمل الإسلامى يمكن أن يشكل بحق إضافة للمسيرة الإسلامية المعاصرة سواء بما حالفها من صواب لتلمسه أو ما وقعت فيه من أخطاء لتجنبها والإفادة منها . ذلك أن السكونية والانسحاب من الساحة والابتعاد عن فقه الواقع وعن امتلاك القدرة على التعامل معه لا يعنى صواب الرأى بالقدر نفسه الذى لا يعنى فيه الخطأ . إنه صورة خارجة عن معادلة الخطأ والصواب ، وعجز عن تنزيل الإسلام على واقع الناس وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المسلمين والاكتفاء بإلقاء التبعة على الظروف والعامل الخارجى دون الانتباه إلى أننا بشكل غير مباشر نحكم على أنفسنا بأننا دون سوية العصر بظروفه ، ودون سوية التعامل مع القضية الإسلامية وفقه ميدانها .

لماذا التجربة السودانية ؟

وأما السبب الثانى لهذا الحوار فهو موضوعه ، أى تجارب الإسلاميين السودانيين .

إن عامة المشتغلين برصد اتجاهات العمل الإسلامى المعاصر يجمعون على أن تجربة الحركة الإسلامية فى السودان تمثل الآن أبرز موقع متقدم للتيار الإسلامى فى الشرق الأوسط – إنها الآن شريك فى الحكم يتمتع بحرية العمل والحركة ، وهى وحدها التى يمكن التعرف إلى هياكلها وأدبياتها واتجاهات الرأى فيها بشفافية ووضوح ، ووحدها التى تعقد مؤتمراتها واجتماعاتها الاستشارية فى العلن وتحت رقابة الرأى العام . لذلك يغدو الاهتمام بتجربتها والتعرف على خفاياها ضرورة حقيقية غير مفتعلة لوقف كثير من مظاهر التسيب وعدم التقيد بالأمانة العلمية فى الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة .

لم يعد مناسباً أن يُجمل بعض الباحثين اتجاهات العمل الإسلامى كلها فى صف واحد دون تمييز ليطلق عليها ذات الأحكام التى مجت الأسماع ترديدها ، ولم يعد مناسبا أيضاً أن يصمت القائمون على هذه التجارب إزاء ركام الأحكام المتسرعة ولا يقدمون للرأى العام قراءتهم هم لتاريخهم وبرامجهم وطموحاتهم .

فى هذا الحوار يجد القارىء مراجعة تفصيلية لتجارب السودانيين على قدر غير متصنع من الشجاعة يدلى بها قائد الحركة السودانية

ومنظرها الأول ، واعتقد بنزاهة أنها مراجعة جديرة بالاهتمام والاحترام .

* * *

كلمة أخيرة

إن هذا النص ليس موجها بالأساس إلى جمهور التيار الإسلامى فى العالم العربى على حاجتهم الماسة لمثله .

ولكنى آمل قبل ذلك أن يتيح لكثير من المثقفين والصحفيين العرب أن يتعرفوا عن قرب أكثر إلى الطريقة التى تدار وتتطور بها إحدى أكثر الحركات الإسلامية المعاصرة المثيرة للجدل فى الوقت الراهن .

ودعنا نأمل أن يسمح هذا التعرف بارتفاع مستوى الحوار بين اتجاهات التفكير فى حياتنا العربية المعاصرة ، فقد أثبتت لغة التنابز بالألقاب ودعوات الإقصاء والويل والثبور فشلها فى كل الساحات .

وأزعم أيضاً أن مثل هذه النصوص ستساهم فى تحجيم مسالك التطرف يمينا أو يساراً ، لأنها إذ تبرز قيمة الجهد البشرى فى التفاعل مع تحولات الزمان والمكان ومجاهدته للوفاء لتعاليم الشريعة ستكون دعوة مفتوحة للتفكر قبل إصدار الأحكام الجزافية ، ولاحترام جهود الآخرين قبل تشويه نواياهم ، وللجدال بالحسنى قبل مصادرة حقهم فى العمل والوجود – إن هذه الأفكار تشكل الآن قناعات ثابتة لدى

كاتب هذه السطور ، وهو يعترف بأنه يعمل على ترسيخها فى كل منبر وساحة لأنه يعتقد الآن وأكثر من أى وقت مضى أنها السبيل الوحيد للتقدم بالوضع العربى الراهن وتشريك كل الفئات فى معركة الوجود الحضارية التى ماتزال قائمة .

أما كتونسى ، فإننى آمل أن يُفهم هذا النص على أنه سبيل أفضل ألف مرة للتعامل مع دعاة الفكرة الإسلامية بدل تكرار التجارب المرة الماضية ، واعتقد أن الإسلاميين التونسيين يملكون جرأة أكبر من غيرهم على الاعتراف بأخطائهم والانفتاح على أفكار الآخرين وتجاربهم ، ولنتفاءل خيراً بأن التحولات السياسية الأخيرة ستدفع الاتجاهات الأخرى إلى انفتاح حقيقى على التيار الإسلامى ، قد يكون مقدمة لتعاون حقيقى مخلص من أجل مصلحة البلاد والمنطقة .

هذا حوار أجريته مع الدكتور حسن الترابى فى الصيف الماضى آخر أيام إقامتى بالخرطوم . وبالنظر إلى كثرة حواراته السياسية فقد حرصت أن يقع التركيز خلال هذا الحديث على مراجعة تجارب الحركة الإسلامية فى السودان عبر مراحلها المختلفة . ذلك أنه بقدر ما يكثر الحديث عن تقدم الصحوة الإسلامية وضرورة الحل الإسلامى بقدر ما نحتاج إلى معرفة واضحة وعلمية بتجارب الحركات العاملة للإسلام من أجل تصحيح الأخطاء ومواكبة الزمن والوفاء لتوجيهات الشريعة وتعاليمها .

وفى السودان سجل الإسلاميون إنجازاً جديدا فى رصيدهم بمشاركتهم مؤخرا فى حكومة الوفاق الوطنى برئاسة السيد الصادق

المهدى ، وهذا التطور حافز آخر للتقويم والمراجعة من أجل بسط تجارب العاملين للإسلام وتمييز وسائل الدعوة ومضامينها التى تعكس سماحة الإسلام ووسطيته واعتدال أهله ودعاته . وبالرغم من مرور أشهر على إجرائه ، وتحول د. الترابى من زعيم للمعارضة إلى وزير للعدل ونائب ثان لرئيس الوزراء فإن الحوار لا يفقد شيئاً من أهميته ، لأنه يمحص التجارب التاريخية ويراجعها .. هذا وكان قد حضر معنا جلسة الحوار عدد من الزملاء العاملين فى الصحافة السودانية ومنهم خاصة الأساتذة محمد وقيع الله ومحمد محجوب هارون ونزار ضوالنعيم .

* * *

محمد الهاشمى الحامدى

س لنبدأ حديثنا لو سمحتم بالسؤال عن الجبهة الإسلامية القومية : هل لكم أن تضعوا نشأة الجبهة فى سياقها التاريخى ، من حيث نمو العمل الإسلامى فى السودان وتطوره ، ثم من حيث تطور الحركة السياسية فى البلاد بصفة عامة ؟

الترابى : بسم الله الرحمن الرحيم :

الذى يسر للحركة الإسلامية فى السودان أن تنمو باضطراد أنها أسست وتطورت على وعى بتاريخها ، وإذا تمكن الوعى بالتاريخ يصبح التجديد نتيجة تلقائية .

إن الذى أصاب المسلمين ، بالرغم من أن الدين يشدهم إلى حركة اليوم والليلة والشهر والسنة ، بالعبادات وبنظام المسؤولية الدينية عن كل لحظة ، هو الغفلة عن التاريخ ، فأصبحوا لا يتجددون لأنهم لا يدركون حركة التاريخ المتقلبة بصروفها وظروفها ، وأصبحوا يحسبون الفكر البشرى ، أقصد الكسب الاجتهادى للمسلمين ، ممتداً فى الزمان والمكان ، ونزعوا الشرع - وهو تنزل القيم والأحكام على واقع حركى فى العهد السنى ، جردوه من هذه الواقعية ونصبوه صوراً خارج الزمان والمكان ، ولذلك فهم لايستشعرون أزمة المفارقة بين كسبهم التاريخى وبين حولان الظروف وتغيرها ، ومن ثم فهم لا يستجيبون للأزمة بأى محاولة للتجدد فى التدين والعمل والفكر والحركة .

هنا فى السودان ، كانت الحركة الإسلامية مدركة جدا لتاريخها. ربما تكون قد أخذت أشكال التجربة المصرية فى عهدها الأول التى أخذت هى بدورها أشكال الحياة الإسلامية فى العصور الأخيرة فى منهج التربية وفى منهج الإصلاح ، ولكن فى وقت قصير بعد هذه المرحلة الأولى وعت الحركة الإسلامية ذاتها ، ونسبت نفسها إلى زمانها وإلى مكانها المعين ، وبدأت تحاول أن تناظر بين ما تستعين به من مواقف وأشكال وبين حاجة الدين المتطورة فى الزمان والمكان ، وبدأت تتجدد فى أشكالها الدستورية ، ويمكن أن ترى صوراً لذلك التطور مثلا فى تعاقب التعديلات الدستورية ويمكن أن نراه من خلال الوظيفة المتجددة لمؤسسات الحركة الإسلامية وللحلقة التنظيمية الأساسية فيها ، فمن أسرة تربوية يقوم عليها قيم إلى وحدة إدارية وظيفتها عضوية وليست ثقافية . ويمكن أن نلاحظ ذلك أيضاً فى عضويتها ، وفى مدى الوظائف التى نهضت بها الحركة ، وفى كل مرحلة من المراحل الكبرى كانت الحركة تراجع نفسها وتدرك أن عليها أن تحدث تحولات كبيرة فيما تستعين به من أشكال ومواقف لمواكبة حاجات الزمن المتطورة .

ومن ناحية أخرى ، فإن تطور حجم الحركة نفسها كان يقتضى التجديد . لقد كانت الحركة تبدل أشكالها تبديلا واسعا ، ولم يأسرها الشكل الدينى التقليدى أبدا ، وهذه واحدة من الفتن ، أن المتدينين يعبرون عن دينهم من خلال أشكال وصور وأنماط وقوالب للحياة منتسبة إلى الدين ، مما يضفى عليها شيئاً من القداسة ، ويمكن أن

يتوهم الإنسان أنها بهذه النسبة تأخذ شيئاً من أزلية الدين لكونه مطلقاً فى الزمان والمكان ، فيصبح أسيراً لذات الوسائل التى يتستعملها ليصل بها إلى الله ، وتقطعه هى عن التقدم دائماً زلفى إلى الله فى كل طارىء جديد ، فكنا نحاول ألاّ نتورط فى هذه الفتنة .

فالجبهة الإسلامية هى آخر المراحل التاريخية فى تطور الحركة الإسلامية ولن تكون الأخيرة طبعاً ، لتعبر عما تراه مقتضى الدعوة والمجاهدة الإسلامية فى السودان ، وهى تختلف عما قبلها من المراحل باختلاف تطور الحاجات والضرورات . والواقع أن حركة الإخوان شهدت تطوراً واسعا منذ أوائل الستينات .. .

س : تقصد الإخوان فى السودان ؟

الترابى : أجل ، كان ذلك أولا بعد خمس سنوات من إنشائها فى ١٩٥٤ فى أول مؤتمر تأسيس جمع الكسب العضوى الذى كان قائماً وصاغه فى نظام للعمل والتوجه ، ثم بعد خمس سنوات أخرى تقريباً - أى فى أوائل الستينات - إذ كان قد توافر كسب آخر وتطور هائل ونظر جديد لطبيعة الحركة ونقد لمدى جدواها لواقعها وزمانها وبعد أربع سنوات أخرى ، فى ثورة أكتوبر ، انطلقت مرحلة جديدة تطورت فيها الحركة ونشأت جبهة الميثاق الإسلامى كواجهة للعمل العام ، وظلت هذه المرحلة تتسع وتمتد وتسارعت التطورات بأكثر من سرعة قادة الحركة فى استيعابها وتطوير التنظيم ليلائمها .

س : هل تعنى الإخوان أم جبهة الميثاق الإسلامى ؟

الترابى : الجبهة والإخوان ، لأن الجبهة كانت الواجهة السياسية للإخوان ، ولكن التطورات كانت أضخم وأسرع وأكثف من أن تستوعبها الأجهزة التنظيمية ، وكنا نحاول أن نلاحقها وندركها بجهد جهيد .

وفى أوائل السبعينات ، وبنظر رجعى تقريباً ، جمعت الحركة كل كسبها فى مرحلة الحرية فى الستينات ، وحدث تطوير واسع فى حركة الإخوان ، وبدأ التعامل مع الزمن بالتخطيط وتقدير احتمالات المستقبل للاستعداد لها .

أما فى ١٩٧٦ فقد حصلت نقلة نوعية جديدة وبدأ التفكير الاستراتيجى الذى أحدث تغييرا واسعا وبدأت معه المصالحة – وكانت هذه التطورات تواكب التطورات الحاصلة فى الواقع الذى تعمل فيه الحركة ، وهى تطورات أثرت فى نظامها وعضويتها ووظائفها ومداها – استمر هذا التطور طيلة فترة المصالحة التى كانت وحدة زمنية فى نمو الحركة .

وكانت الجبهة الإسلامية هى رمز المرحلة الأخيرة من تطورها . لم نصل هذه المرحلة طبعا بدون تخطيط ، وإنما كانت البداية من خلال خطة أقرتها أجهزة الحركة قبل الخلاف مع النظام السابق دون أن نسمى الجبهة باسمها لأن ذلك الظرف لم يكن يسمح بالأشكال السياسية ، ولكن أستطيع القول بأن كل معالم الحركة الإسلامية الحديثة كانت متوفرة فى مضامين تلك الخطة – والذى حدث فيما بعد هو أن هذه الخطة أخذت شكلها الفعلى المتكامل باتساع الحرية .

الجبهة الإسلامية إذن هى طور متقدم من أطوار تطور الحركة الإسلامية ، وكان لكل طور تأثير متفاوت فى أشكال الحركة ودستورها وكثافة تنظيمها ولم تكن هذه التأثيرات التنظيمية شكلية بحتة وإنما كانت تستجيب فى الحقيقة إلى نمو وظائف الحركة واتساع تخصصاتها – فكان لابد لهذه التطورات أن تحملها مكاتب جديدة وأن تعبر عنها علاقات رأسية وافقية جديدة .

وأدى التطور أيضاً إلى نمو التفاعل مع البيئة فتطورت مواقف الحركة وأشكال ظهورها فى الحياة العامة وعلاقاتها الدولية . والجبهة

الإسلامية هى آخر مرحلة فى ذلك التفاعل ، فهى المرحلة التى تمكن فيها شعور الحركة بأنها تحولت من جماعة إلى مجتمع ومن دعوة إلى دولة ، وقد كانت هذه الأفكار تراودنا منذ السبعينات ، وكنا نحاول فى عملنا وتقاريرنا التنظيمية الداخلية ألاّ نعبر عن همومنا الخاصة فحسب لأننا قطعنا شوطا مقدراً فى التفاعل مع المجتمع . أما الآن فالجبهة تعبر بأتم الوجوه عن شعبية الحركة التى كانت هماً استراتيجياً نعمل له منذ منتصف السبعينات ، كما تعبر عن استكمال الحركة التى نقدر الآن أنها شاملة للوظائف الإسلامية كافة ، رغم أننى أدرك سلفاً أن الحاجات الجديدة ستتجاوزها بعد زمن غير بعيد ، وأعلم أن أهلها سيراجعونها بعد خمس سنوات على أقصى تقدير وهى دورة التجديد فى نمط تطورنا .

س : متى بدأ الحوار بين الإسلاميين فى السودان لتطوير الحركة والتفاعل مع تغير الواقع والزمن ؟ .

الترابى : بدأ الحوار منذ نشأة الحركة تقريباً ، فكانت هناك مدرسة ترى أن دور الحركة تربوى فى المقام الأول فهى تأخذ أعضاءها أفذاذاً لتطهرهم وتزكيهم وكانت علاقتها بالأهداف السياسية مثل الأحلام لا يترتب عنها أى عمل . لكن منذ أوائل الخمسينات تقريباً بدأ الجدل بين فكرة الدعوة الواسعة والمشروع التنظيمى الضيق ، وبرزت عندنا فى الجامعة مناظرة بين من سموا أنفسهم مدرسة التربية ومن سموا أنفسهم مدرسة السياسة ، أهل

السياسة يريدون التفاعل مع الحركة الطلابية وقضاياها ، وأهل التربية يريدون العكوف على العضوية وتركيزها . وبدأ الحوار منذ تلك الأيام حول الأسرة كخلية تنظيمية ، هل هى الإطار الصحيح للتعبير عن حاجات الحركة ؟ وبدأ الحوار حول سياسة التجنيد وضم الأعضاء ، إذ كانت فينا توجهات مقبلة على المجتمع تريد توسيع عضوية الحركة باضطراد وأخرى كارهة جداً ترى فى دخول العناصر المتكاثرة ما يهدد بانحطاط المستوى وكشف الأسرار ، وشملت المناظرات أيضاً موضوع السرية والعلنية .

وكان لكل هذه التوجهات خلفياتها وأصولها ، فأهل الدعوة المنغلقة كانوا متأثرين فى فكرهم بتراث الأدب الصوفى الذى دخل حركة الإخوان المسلمين منذ بداياتها الأولى وأثر فيها ، وبنزعة الجنوح إلى السرية على طريقة الإخوان فى مصر ، وهى نزعة لم يكن يوجد ما يبررها فى السودان لأن السودان كان يتمتع بحرية نسبية حينئذ ، ولم يكن للسرية من مغزى إلا نقل التجربة بدون تصرف ، لأننا لم نكن نحسن التعامل مع الواقع والزمن فى تلك المرحلة . لكن تطورت الأمور فيما بعد ، فمثلا فى ١٩٥٥ بدأت الجهود لتأسيس الحركة خارج المدارس لأنها كانت فى البداية مغلقة على معاهد العلم فقط ، وبدأت الجماعة منذئذ تتعامل مع الحياة العامة ، لا أقول كحزب سياسى لأن حجمها لم يكن يؤهلها لذلك ، ولا أيضاً كهيئة ضغط فعال ، لكن كجهة تحاول التعبير والتأثير . وكان السودان يدخل عندئذ طور الاستقلال ، فأصدرت الحركة بعض البيانات وصحيفة خاصة واجتهدت قليلا فى ميدان النشر .

وفى أوائل الستينات إذ كان عبود يحكم البلاد (حكماً عسكريا ١٩٥٨ - ١٩٦٤) تراجع نشاط الحركة فى الساحة العامة وفرغ أبناؤها لخاصة شأنهم وتساءلوا كل الأسئلة : هل نحن حركة ضغط تنشد التأثير فى الحكم فقط ولا تريد السلطة لنفسها لأننا كما كنا نقول عندئذ : لسنا طلاب حكم ؟ أم نحن هيئة سياسية نضغط ونفعل فى الساحة وقد نشارك فى الحكم ؟ وتساءلنا عن العضوية هل هى صفوية للمثقفين القادرين على استيعاب برامج التربية وأدوار القيادة أم هى عضوية شعبية واسعة ؟ وتساءلنا عن الأشكال التنظيمية هل هى قيادة شورية مركبة أم إدارة لتنظيم محدود النفوذ والوظائف ؟ وطرحت مسألة القيادة الفردية والجماعية وصيغت كل هذه التساؤلات فى مذكرات مكتوبة . وكان ذلك تطوراً كبيراً فى بنية الحركة وتفكيرها لأننا فى ١٩٥٥ لم نكن نسوغ الاجتهاد فى التنظيم ، وكان دستورنا فى مجمله نسخة تقليد من دستور الإخوان فى مصر .

فى ١٩٦٤ بدأت مرحلة الانفتاح ، فقد توافر عدد كبير جدا من الخريجين الإسلاميين ، وأصبح هناك وعى وبحث عن طبيعة الحركة الإسلامية ووظيفتها فى المجتمع . لكن هذا الانفتاح لم يستوعب فى الحركة وبدا كأنه انفتاح خارجها ، لأن الأطر - رغم اتساع الحوار - ظلت جامدة وعاجزة عن استيعاب الحركية المتسعة . ولذلك خرجت جبهة الميثاق الإسلامى خارج الإخوان ، وخرجت الحركة النسوية والحركة العمالية والحركة الشبابية ، وخرجت السياسة الخارجية والتجاوب مع حركات التحرر والثورة فى العالم فى

تشاد وارتيريا ونيجيريا ، كل هذا تقريبا كان يتم بمعزل عن أطر الإخوان .

س : معذرة . أنا لا أفهم ، ألم يكن القائمون على هذه الأعمال من الإخوان ؟

الترابى : بلى ، لكن العمل كله كان يتم خارج إطار التنظيم ، فى جبهة الميثاق ، فى منظمة الشباب الوطنى والجبهة النسوية الوطنية والحركات الفئوية الوطنية والحشود العامة ، وكان التنظيم أضيق وأصغر من أن يستوعب هذه التدابير ، وأدى ذلك فى الأخير إلى ظهور بوادر الصراع بين مخيم التنظيم الإخوانى وبين هذه التجارب الواسعة الجديدة ، وسماها الناس صراعا بين الإخوان وجبهة الميثاق وبرزت رموز شخصية تجسد الاستقطاب ، وكان أن شهدت وحدة الحركة أكبر زلزال فى تاريخها فى تلك الأيام .

س : متى كان ذلك بالضبط ؟ .

الترابى : من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٩ ، كان الإخوان التقليديون ، المتمكنون القابعون فى الأطر التنظيمية التقليدية ، يرون هذه المناشط الواسعة كأنها غير مشروعة لاسيما أنها تجرى بعيدا عن المحور ، لم يكونوا يجدون فيها روح التدين ، ولعل جدواها الواسعة ومداها الكبير ووقعها العظيم قد زادهم غيرة منها ، إذ بدا تنظيم الإخوان التقليدى على هامش الحياة العامة ، سريا وغير مذكور ، وبدا أن مبادرات العمل الإسلامي الفعالة تصدر من خارج الإخوان ، ولعل

القائمين فى الساحة العلنية قد توهموا هم أيضا أن هذا التنظيم السرى – بالإضافة إلى تعويق العمل العام – لايكاد يجدى شيئاً .

هذه مرحلة مرت بها حركات كثيرة غيرنا ، لكن تجاوزناها بمؤتمر ١٩٦٩ الذى حسم هذا الصراع بتوسيع دائرة الشورى إلى مدى بعيد لاحتواء النزاعات وبتوحيد الحركة من حيث البناء لتضم كل الوظائف ، رغم أن المؤتمر لم يعبر عن ذلك بأشكال كاملة ، وإنما نص فى الدستور على تأكيد وحدة القيادة وشوريتها ، وأعطى مشروعية تامة من حيث المبدأ لكل ساحات العمل الخارجى بأثر رجعى .

وعندما جاء الحكم العسكرى الثانى فى مايو ١٩٦٩ كان أول مافعلناه ، بعد تجاوز الوقع الأول للاعتقالات ، هو محاولة استيعاب كل ذلك الرصيد الماضى فى أطر تنظيمية متكاملة . كانت الحركة إلى ذلك الحين سياسية ثقافية ، ثم بدأ العمل الاجتماعى حينئذ لأول مرة : عمران المساجد والاهتمام بالأوضاع والمناشط الاجتماعية ، وبدأ النظر إلى العضوية نظرة مراجعة كلية ، واكتشفنا أنها كانت مختلة جداً لصالح الذكور . وتأملنا فى التنظيم وأدركنا أنه كان بسيطاً جداً ، وأنه بأوضاعه وعلاقاته ومنهجيته القائمة كان عاجزا عن التلاؤم مع الوظائف فبدأت فكرة تأسيس التنظيم على قواعد علمية ، واعتمدنا مناهج للتخطيط والتوثيق وتوزيع الاختصاصات بين المكاتب والتنسيق بينها ، واعتمدنا نظام أوراق العمل المدروسة برامج مرحلية للحركة ونظام التقارير الدورية لأول مرة . إذن بدأ تحديث التنظيم بطرق علمية فى أوائل السبعينات تقريبا ، وأعيد النظر بإلحاح فى

العضوية بانحاه توسيعها وخاصة فى أوساط المرأة لغيابنا الواضح فى هذا المجال ، واتجهنا إلى مزيد من الانفتاح الشعبى فى الوحدة وإلى انفتاح اجتماعى ورياضى وتعاونى ، خاصة وقد تقلص العمل السياسى فى العهد العسكرى الجديد .

استكملت هذه المرحلة بين ١٩٧٣ - ١٩٧٦ واعتقد أنها هى التى حملت الحركة إلى المصالحة .

س : هل يعنى ذلك أن الحركة هى التى سعت إلى المصالحة مع النظام القائم فى ذلك الوقت ؟ .

الترابى : بعد فشل آخر محاولة لقلب النظام فى ١٩٧٦ ، بدأت الحركة تراجع نفسها . بل الحقيقة أن هذه المراجعة بدأت قبل هذا الحادث ، وأجلت عمدا حتى تستخلص عبرة المحاولة الانقلابية نجحت أو فشلت ، لأنها كانت ستحول الإطار الذى تعمل فيه الحركة . وكنا نقدر أن الحركة تعاظمت جداً فى داخل السودان بينما تقلصت الأحزاب التقليدية ، وكنا نقدر أن ما خططنا له فى بداية السبيعنات كان تخطيطاً قصير المدى ، إذ كنا نبرمج لكل سنة ، وأدركنا فيما بعد الحاجة لتخطيط على مدى أطول . وتجلت لنا من خلال التدبر والنظر الممتد مشروعات وبرامج وأهداف للحركة يتعسر تنفيذها إلا فى مناخ فيه قدر من الحرية . لقد كنا مستعدين أصوليا وفكريا لمعالجة قضية المرأة والعضوية والنزول الواسع إلى الشعب ووضعنا كل هذه المشروعات فى استراتيجيتنا الجديدة التى اتخذناها فى

أواخر ١٩٧٦ ، بعد فشل محاولة يوليو (تموز) . وكان الهدف الأساسي للاستراتيجية أن تسعى الحركة هادفة عامدة إلى التمكن والسلطان ، وأن يكون لهدفنا هذا طريق ومنهج مرسوم ، تقوده الحركة بقوتها أساسا لا بالتعويل على التحالفات التى لاتخدم إلا هدفا مرحليا ولا تصلح وسيلة خالصة للإسلام . ولم نحرص أن يكون التمكين للحركة اعتزالا لغيرها ولكن أردنا الحركة من بعد بديلا أساسيا للقوى اليسارية والتقليدية جميعاً وأردنا أن تتقدم الحركة بمنهج الله نحو التمكين المتكامل . وكان ذلك الهدف الاستراتيجى الكلى يقتضى تدابير محددة ، منها أن تنزل الحركة إلى الشعب إذ لا يمكن لحركة صفوية محدودة أن تتمكن بمنهجها أو قوتها ، كان لابد أن نتحول حقيقة إلى حركة شعبية وأن نصل كل فئات الشعب فى كل مناطق البلاد ، وكان لابد لفكرنا الفوقى أن يتطور من فكر دعوة ومجادلات نظرية إلى فكر ذى بعد واقعى يعالج مشكلات الحياة التى تواجهها بلادنا ويخاطب قضاياها المعينة . ثم من أجل ذلك كله كان لابد للتنظيم أن يستجيب لذات المقتضيات ، فبدلا من كيان شورى وتنفيذى مركزى فى الخرطوم ، كنا نحتاج إلى بسط لامركزية واسعة وإيجاد مكاتب تنفيذية ومجالس دستورية فى كل المناطق . باختصار حين أردنا التمكن لزمنا تطور جذرى وشامل ، فكرى وحركى وتنظيمى ، ولتحقيق ذلك كنا فى حاجة إلى فترة من التفرغ والحرية ، طلبناها بالانتفاضة على النظام ولم ننجح . وأدركنا بقراءة علمية للواقع أن النظام رغم صموده موقن أنه لن يرتاح ، ولن يستطيع سحق المعارضة ، وأنه متوجه لا محالة إلى هدنة كنا فى حاجة إليها

أيضا . وحصل ما توقعنا ، سوى أن التطورات لم تفض إلى هدنة فقط بل إلى مصالحة ، كان أحد شركائنا فى الجبهة الوطنية للمعارضة هو الذى نشط فى مبادراتها .

كنا دائما نحاول قراءة الواقع واستكشاف سياقاته ومصائره ، انظر مثلا تخطيطنا فى ميدان المرأة ، لقد كنا نقدر مع توسع التعليم والعمل والحضر أن ستخرج المرأة إلى المجتمع ، وكنا حريصين على موافاة هذا الخروج ببرنامج يوجه الحركة النسوية التى يدفعها قدر التطور الاجتماعى العام – برنامج يساير القانون الاجتماعى ، لا يعاكسه تشبثا بالأعراف التقليدية المحافظة بل يوافيه ويتقوى به . وكذلك نركب متن حركة التاريخ ونوجهها وجهة دينية .

هذه عموما بعض معالم الاستراتيجية التى اتخذناها لمنتصف السنوات السبعين ، ولعلها أهم مفصل فى تاريخ الحركة الإسلامية فى السودان .

س : لقد خططتم لكل هذا قبل المصالحة ولكن فى الوقت نفسه كنتم تشاركون فى انتفاضة مسلحة ضد النظام ؟ .

الترابى : قلت لك آنفا فصلنا القطاعين الإدارى والسياسى ، ولذلك لم تتأثر الحركة فى الداخل بفشل انتفاضة ١٩٧٦ الجهادية ، ولم يعتقل من جرائها أى من أصحاب المسؤوليات المهمة فى القطاع الإدارى لأن الفصل كان معمولا به لمعالجة مثل هذه الظروف . وقد استمر عملنا فى الساحة الاجتماعية وفى الجامعة ، حتى المصالحة نفسها

بينما استمر جهادنا فى جولاته المتلاحقة وما كنا لنحسن التعامل معها مع تلك الظروف الدقيقة بهذا التوازن بدون الاستراتيجية ، فالخطة هى التى بصرتنا بوجود التوفيق الحكيم بين حاجات العمل الإسلامى العاجلة والآجلة .

س : هل أفهم من ذلك أن الاستراتيجية قد أجيزت نهائياً قبل انتفاضة ١٩٧٦ ؟ .

الترابى : الخطة وضعت قبل محاولة يوليو (تموز) ، لكنها أجيزت رسمياً بعدها عقب تيسر القرار الشورى النظامى وخروج رموز الحركة من السجن . والخطة هى التى حكمت من بعد تحركاتنا وتصرفاتنا فى المصالحة ، فالمشاركة فى النظام بعد مصالحته إنما جاءت باعتبارها وجها من أوجه خطتنا الداعية للنزول إلى المجتمع والتفاعل مع قواه ، وما التنظيم السياسى الرسمى ولا الدولة إلا بعض واقع ذلك المجتمع مهما كان تقويمنا للأوضاع . فعندما دخلنا الاتحاد الاشتراكى كان مدخلنا كريها إلى النفوس لذاته وما كنا لنقدم عليه لولا أنه كان جزءا من خطتنا للوصول إلى المجتمع الواسع فى الريف وفى الجنوب وفى التجمعات الشعبية والعمالية ، لقد كنا حسمنا خيارنا فى ذلك الوقت ورفضنا أن نكون حركة إلى جانب المجتمع ، نعتزله ونتعامل معه بالجدل والمناظرات ، وإنما أردنا أن نكون نحن حركة المجتمع ذاته ، ندخل فى سياقة ونقاوم ما فيه من شر ونبنى على ما فيه من خير ونحرك العوامل الايجابية ولعل ، « هذه الايجابية المتوكلة هى مما أنجح مشروع المصالحة من حيث هى مرحلة فى استراتيجية الحركة

الإسلامية . فبهدى هذه الاستراتيجية كانت أولى الأوراق التى وضعناها حينئذ أننا لا نعول على إصلاحات نرجوها بسبب المصالحة من قبل النظام ، وإنما الذى نلتمسه ونتوخاه هو الحرية للحركة لأنها شرط أساسى فى تنفيذ سائر أركان الاستراتيجية ومراحلها ، وركزنا على هذا المعنى حتى لا ينشغل أعضاء الحركة ولا يلتهون بالتساؤل عما نحققه فى إصلاح النظام ذاته وترشيد سياساته لأننا ماكنا معولين على النظام أو الإصلاحات المباشرة العاجلة فيه ، بل على مد جذور حركتنا داخل المجتمع السودانى فعليها بطبيعة منهجها المعول فى الإصلاح الحاسم ولو كان آجلا .

س : هذه معادلة صعبة ؟ .

الترابى : نعم ، لكن التوجه الاستراتيجى عصمنا جدا ، كنا دائما معرضين للفتنة بأن نقيس عملنا إلى معايير متعلقة بالنظام أو بوضعنا العابر العاجل معه ، إذا ضايقنا النظام بشدة أو ساء وجهه أو أحرجتنا علاقتنا الظاهرة به اعتبرنا المصالحة فاشلة ، وإذا غفل عنا أو صلحت جزئية من سياسته ، اعتبرناها ناجحة ، هذه الفتنة كانت دائما تعترضنا لكن كنا نعود إلى أوراقنا المكتوبة ، إلى خطتنا البعيدة المتجاوزة للنظام إلا أن ننتقى منه الحرية التى تعين على التجاوز . وكنا نقدر منذ البداية أن مردوده الإيجابى ربما سيكون منعدما تماماً ، لذلك يجب أن يكون الصبر والتعزى موعد الحركة ، والإيمان بأن لن يحصل أى إصلاح جذرى وجدى إلا بتمكينها عبر الحرية المتاحة ، فعندما تتمكن الحركة اجتماعيا وثقافيا وسياسيا فستتولى هى تطهير

المجتمع وتطبيق الشريعة وتوسيع الحرية والنهضة بالاقتصاد إلى آخر مصالح الشعب ومقاصد الدين . هذا التقدير نفعنا جداً ، وجعل جهودنا منصبة أساسا على بناء الحركة وتأهيلها لتحقيق أهدافها الاستراتيجية .

س : فى هذه المرحلة خرجت مجموعة الأستاذ صادق عبد الله عبد الماجد ، لماذا حصل ذلك فى تقديرك ؟

الترابى : الذين خرجوا كانوا يمثلون ثلاث مدارس كانت موجودة من قبل أصواتا داخل التنظيم :

(أ) منها خط كان ضد التطور فى الاجتهادات التنظيمية والحركية منذ الخمسينات ، ويرى أن تراث التجربة الإخوانية التقليدية هو تقريبا الفقه النهائى لحركة الإسلام المعاصرة وهذا رأى يتبناه بعض الناس إلى يومنا هذا . هؤلاء كانوا متحفظين على جل التطورات التنظيمية والحركية للجماعة وعلى ضعف علاقتها بالتنظيم العالمى للإخوان .

(ب) عندما بدأنا محاولاتنا فى تنزيل الفكر الإسلامى إلى واقع الحياة أصبح لاجتهادنا بُعد منهجى أصولى ، وكانت تلك مرحلة ضرورية من مراحل تطور مسيرة الحركة وحاجاتها إذ لم تعد تغنى المناظرات المجردة والمقولات العامة كالتى عهدناها فى مرحلة الدعوة الأولى . ونشأت من هنا دعوة تطوير الأصول الفقهية والاجتهاد الفقهى .

فقامت فينا عناصر من تلاميذ المدرسة المحافظة أغلبهم تخرجوا من معاهد المذهبية السلفية النقية الظاهرية وبعضهم من المتعصبين للتراث المنقول وكانوا مرتابين من الروح الاجتهادية وكل ما تحمله من معان وفتاوى وتوجه منهجي .

ج : العامل الثالث سياسي وهو أقلها شأناً وحجماً ، إن فكرة النزول إلى المجتمع كانت محل خلاف منذ القديم ، فمنذ بروز جبهة الميثاق الإسلامى برز تحفظ على العمل الشعبى الواسع وكانت المصالحة تجربة أعنف وأخطر لأنها كانت تبدو مغامرة غير مضمونة ، فجبهة الميثاق كانت إسما إسلاميا ، وفى مناخ من الحرية ، أما هذه المرة فنحن نريد الدخول بالحركة تجربة تفاعل فى إطار أشكاله ليست إسلامية وحريته محدودة .

لذلك كان البعض متخوفين أن تودى هذه التجربة بالحركة ، هذا التخوف مرتبط بضعف درجة التوكل والإقدام السياسى ليس فى السبعينات فحسب وإنما منذ أمد بعيد . كان المتحفظون الحذرون يرون أن الحركة إذا دخلت على المجتمع أوشك أن يفتنها ، بينما كان الآخرون يرون أن ذلك سيطهرها ويزيدها إيماناً وفاعلية .

هذه هى وجهات النظر التى فضلت أخيراً الخروج عن الحركة وليس مهما أن نتحدث عن أعيان الأشخاص . مهما كان حجم الخارجين محدودا فى مراحل سابقة كانت الاجتهادات الجديدة فى النظر والعمل تحتمل لأن وقعها كان يبدو مخففا ، أما فى أواسط السبعينات فقد كانت مراجعاتنا جذرية وحاسمة وكانت مثلما ذكرت

آنفا معلما أساسيا فى تاريخ الحركة فتعذر على هذه الأطراف قبول التطورات الجديدة والاقتحام المتوكل للحياة العامة بعد المصالحة فخذلتهم محافظتهم وانتهى التوتر إلى قطيعة لم تنشغل بها الجماعة بل اندفعت قدماً .

س : لنتحدث الآن عن مرحلة المصالحة ؟ .

الترابى : تطور التنظيم بعد سنة أو سنتين وأصبح لا مركزيا . قامت لدينا مجالس استشارية مركزية ومجالس شورى إلى جانب مجلس الشورى الحاكم تحكم القيادات التنفيذية فى كل المناطق . اتسعت العضوية اتساعا كبيراً وكان مسؤولو نشر الدعوة يرفعون شعار : المضاعفة عشرة أضعاف بالرغم من أن الهجرة إلى الخارج فى تلك المرحلة بدأت تستنزف منا طاقات عديدة ، ثم ظهرت الحركة النسوية بصفة واضحة بعد أن نضج تأصيلها الفكرى واستوت الأطر التنظيمية المناسبة لها وواتت الفرص فى أحوال المجتمع عامة .

وظهرت وظائف جديدة هدت إليها أضواء الاستراتيجية مثل وظيفة الأمن .

وكنا قد شرعنا فيها ببعض المحاولات الحيية منذ بداية السبعينات ، ثم تأسست فى أيام المصالحة كوظيفة مشروعة واجبة قائمة بذاتها . وظهرت الوظيفة الاقتصادية فى العمل الحركى والإسلامى إذ أدركنا لأول مرة تقريبا أن الاقتصاد جانب مهم جدا فى التدين ، وفى تكييف الحياة الاجتماعية ، وفى الصراع والجهاد السياسى ، ولم نكن نعى هذه

الحقائق من قبل كما لم تعها حركات إسلامية كثيرة حولنا . وما أن بدأنا ننفتح بعمق على مجتمعنا حتى لمسنا الأهمية القصوى للقضية الاقتصادية : إذا أردت أن تدعو أو تتدين فيمكن أن تدعو وتتربى من خلال قضايا الاقتصاد ونماذجه ، وإذا أردت أن تصارع تمكن الحق فيمكن أن تصارع بقوة الاقتصاد محليا ودوليا . ثم بدأ العمل الدبلوماسى الذى كانت لنا فيه ممارسات محدودة أيام الجبهة الوطنية لكننا وسعناها ومضينا فيها بجد ووعى هادف فى مرحلة المصالحة . وبدأنا فى التعامل مع مشكلة الجنوب السودانى ، وألاحظ هنا أن الجنوب كان قبل ذلك خارج حساباتنا تقريبا ، لأن نظرنا كان منحصرا جله فى المجتمع الإسلامى التقليدى وكان الجزء غير المسلم من السودان خارج وعينا . وعندما بدأنا نفكر فى التمكن العام فى الأرض اكتشفنا كل حدود السودان الطبيعية ، وأدركنا أننا متخلفون بشدة فى هذه الساحة وبدأنا عملنا فيها بجدية كبيرة .

كنا عموماً نصوغ خططنا السنوية فى كل المجالات فى ضوء الاستراتيجية ، ونقوم تقاريرنا السنوية على أساس ما جاء فيها لنرى أى مدى بلغنا من مقتضياتها ومراحلها ، فى السياسة والاقتصاد والفكر والثقافة حتى يكون نمو الحركة شاملا ومتوازنا ، أما الوظائف التقليدية (العضوية والاشتراكات والتجنيد) فقد تفرغت لها القيادات والمؤسسات المحلية . وهذه مرحلة مهمة من مراحل تطور الحركة الإسلامية . واجتهدنا كثيراً ليعبر التنظيم فى علاقاته عن تفرغ القيادة العامة للتخطيط والتنسيق وايكال سائر الهموم للقاعدة . ومن

أجل بسط القاعدة وتعبئتها اتخذنا استراتيجية خاصة للانتشار الشعبى طورت بوجه متكامل قبيل سقوط النظام العسكرى .

ففى ذلك الوقت – أى قبل الانتفاضة التى أسقطت النظام – توافرت لنا تجارب واسعة فى العمل الشعبى ، فقدرنا أنه لابد من بناء جبهة إسلامية تجمع هذا الكسب ، ولم يكن يخطر لنا الإعلان عنها بالطبع بمقتضى الظرف السياسى السائد ، لكن قدرنا أن نكون تياراً جامعاً شعبيا متمحورا حول شعارات إسلامية ورموز من الشخصيات القيادية الإسلامية ، وجامعاً لكل وظائف العمل الإسلامى ، تنهض بها تخصصا تنظيمات متمايزة تنطلق بحرية ومرونة ، وتوحدها استراتيجية واحدة تجسد شمول الإسلام ووحدة حركته المناهضة نحو التمكن .

كانت هذه خطوة أخرى فى الانتقال نحو المجتمع والانخراط فيه لأن تنظيماً مركزيا واحدا لن يقدر على تلبية كل حاجات العمل الإسلامى والإحاطة بمختلف مناشطه بوجه فعال . فالاعتبار لم يكن أمنيا محضا : ألاّ نخوف السلطة من مركز قوة متعاظم أو نعرض كل العمل لضربة واحدة ، فحتى لو تمكن الإسلام فى السلطة لن يتجسد أمره كله فى سلطان شمولى يحتكر كل شيء ويدعى إمكان الوفاء به . لذلك حاولنا أن نتمثل فى الحركة صورة المجتمع الإسلامى الواسع المتعدد الأبعاد ، فبدأ تمييز المنظمات المتخصصة فى مجالات العمل المختلفة (الدعوة ، الإغاثة ، العمل النسائى ، الشباب ، الاقتصاد إلخ) خرجت هذه الهيئات من المحور المركزى الآمر ولكنها لم تخرج عن

المحور الاستراتيجي الموجه . ففي الظروف السابقة للديموقراطية رؤى أن تقدم الحركة بهذا النموذج تجربة نحو بناء المجتمع الإسلامي بسعته وحريته المنشودة ، وأطلق على هذه المرحلة « استراتيجية الانتشار » وهى طور من أطوار الاستراتيجية الكلية ، يستهدف مد العضوية والشعبية والتنظيمات وبسط صور العمل الإسلامي المتكاملة الشاملة .

س : لنعد قليلا إلى ما قبل الانتفاضة ، لقد كان الرأى العام الإسلامى والدولى منشغلا أشد الانشغال باعلان نميرى البدء فى تطبيق الشريعة الإسلامية وكانت الأكثرية غير مقتنعة بمضمون هذا التحول وطريقته ولقد كنتم إلى جانبه .

الترابى : (مقاطعا) .. انظر ، لقد كان أغلب الناس يحاصروننا بأسئلة محرجة عن جدوى التعامل مع نظام عسكرى غير إسلامى ، فلما أعلن النميرى تطبيق الشريعة خفف ذلك قليلا من حدة الأسئلة .

الحقيقة أن ما حدث لم يكن فى تخطيطنا الاستراتيجي ، وما كنا نطمح من النظام تطبيق الشريعة ولا إجراء أى إصلاح آخر ، وكنا نعول كما سبق القول على الحركة أملا لإحداث الإصلاحات والتغييرات المطلوبة وما كان لنا بالطبع أن نصرح علنا باليأس من النظام لاستثمار الحرية منه لتجاوزه . وكان الإسلاميون فى الخارج فى حيرة شديدة ، ويحكمون على موقفنا حكما سطحيا بالتساؤل : هل يجوز لحركة إسلامية أن تصالح حكماً عسكرياً ؟ لم يكونوا قادرين

على النظر إلى مدى استراتيجى والانتباه إلى اعتبارات كثيرة أخرى مؤثرة فى الحكم بالنسبة لنا ، لم نكن نتوقع هذه الخطوة الشرعية فى البداية وعندما أعلنت لم يستخفنا لنلقى برجائنا كله فى النميرى بل عملنا على تحويل هذه الخطوة لمصلحة الاستراتيجية ، وعبأنا الجماهير السودانية من خلال التظاهرات المصاحبة لإعلان قوانين الشريعة الإسلامية لنذكرها بالمجتمع الإسلامى الأشمل والفكرة الإسلامية الأرحب ، وحرصنا على تحويل أمر التشريعات من تدابير قانونية سياسية إلى تدابير تعبئة شعبية إسلامية نسهم بها فى تغيير المجتمع نحو استراتيجيتنا النهائية .

مهما كانت نيات نميرى فى سياساته . فهذا أمر موكول إليه لا يهمنا لأن ما يعنينا هو الأعمال . لقد كنا ندرك أن المبادرات الرسمية تجاه الإسلام هى دلالة من دلالات تعاظم المد الإسلامى الذى عملنا من أجله زمنا طويلا ، فلم نضع وقتنا فى التكهنات بمدى صدق النميرى أو بنيته سحب البساط من الحركة الإسلامية ولكن ركزنا على استغلال كل حدث لتثبيت الشعارات الإسلامية والتقدم فى اتجاهها حتى نقطع خط الرجعة أمام السلطة القائمة أو غيرها ونجعل من الحدث سبب قوة لحركة الإسلام الشعبية ، ومهما يكن فإنه لا يمكن لعاقل أبدا أن يطالبنا برفض تحريم الخمور فى البلاد أو تطبيق الحدود بدعوى أن نميرى غير صادق مثلا ، إنما التصرف الحكيم حينئذ هو توظيف هذه الخطوات للتقدم فى الدرب الأطول ، إقامة الحياة الإسلامية بكل معالمها ومقوماتها .

الآن وبحكمة النظر الراجع بعد سنتين أو ثلاث نحمد الله أن استراتيجيتنا قد عصمتنا من التخبط وجعلت بصيرتنا نافذة ، وإن ذلك الجهد الذى بذلناه لتحويل قوانين الشريعة إلى مواقف إيمانية مبدئية عند الشعب قد أثمرت أكثر مما كنا نتوقع وقطعت بنا شوطا حاسما ، فالإسلام اليوم هو خيار الشعب السودانى بلا جدال ، والمشروع العلمانى دحرته الجماهير بصفة قاطعة ، يمكن للقوى التقليدية طبعا أن تناور على الشعار وتنال من جديته لكنها لا تستطيع الآن أن تتجاهله أو تخرج منه مثلما كانت تفعل فى الماضى ، بل إن إحاطة الخيار الإسلامى الشعبى بها يجعلها أكثر ارتباكا ويذهب مصداقيتها ويزيد فى تقهقرها وعزلتها ، واعتقد أن هذه المرحلة التى وصلنا إليها قليلة النظير فى أغلب تجارب الحركة الإسلامية المعاصرة .

س : لكن الاستراتيجية السابقة كانت ترفع شعار التمكن ، ألا يبدو الشعار الجديد تراجعا إلى الوراء ؟ .

الترابى : لا ، فى السابق كنا نريد مرحلة أولى من التمكن تكفل لنا الدخول إلى المجتمع والانخراط فيه لأننا كنا بعفويتنا وخصوصيتنا بعيدين عن حركته ، أما مرحلة الانتشار فكنا نريد بها النفاذ إلى مواقع النفوذ والتوجيه ، عندما انخرطنا فى حركة المجتمع كان لابد من خطوة جادة أخرى نحو أهدافنا وتطبيق برامجنا ، وكانت استراتيجية الانتشار فى خطتنا لذلك ، وهو انتشار شامل ، وفى الساحات المؤثرة فى مصير البلاد ، وهو تمهيد لمراحل متقدمة من التمكن بمعنى ولاية السلطان واستكمال كل أبعاد المثال الإسلامى للمجتمع .

س : انك تتحدث عن مرحلة المصالحة كأن الحركة الإسلامية كانت تعمل فى ساحة خالية من أى طرف آخر ، أين كان موقع الرئيس السابق نميرى من كل هذا ؟ .

الترابى : كان ثانويا جدا فى حسابنا ، كانت استراتيجيتنا توجهنا للصبر على العارضات ومد النظر والعمل نحو المقاصد الآجلة وللتعامل مع كل الظروف المتقلبة فى الساحة السياسية من هذا المنظور حتى لا تستخفنا فتؤثر سلبيا على خطتنا ومسيرتنا نحو التمكن فى المجتمع .

ربما تكون القاعدة الإسلامية قد انشغلت أحيانا بعوارض العلاقة مع نميرى ، لكن القيادة كانت مدركة لمسؤولياتها ، وكان العمل يمضى فى مجمله إلى قبلته المرسومة بتدابير ثابتة لا تضطرب بها تقلبات السياسة النميرية بل تحتاط لاحتمالات انقلابه على الحركة أو طروء طارىء على نظامه .

ولذلك لما ثارت الانتفاضة وطوحت بالنظام ألفتنا مستعدين للمرحلة الجديدة بما أسلفنا من استراتيجية الانتشار ، وعرضنا مشروع تكوين الجبهة الإسلامية القومية تجسيدا للاستراتيجية الشعبية على مجلس الشورى الذى أجازه لأيام بعد الانتفاضة وما مضى نحو شهر حتى عقدنا مؤتمرها التأسيسى ، وكنا بذلك أسرع طرف فى التعامل مع الواقع الجديد ، وهذا من فضل الله على حركتنا فى السودان ، أننا نبذل جهدا كبيرا فى استقراء واقعنا لتحديد متطلباته وتقدير مساراته المحتملة للاستعداد لها وسبق منافسينا الذين تربكهم التطورات التطرفية ويثقل عليهم التفاعل معها بسرعة .

س : كانت الجبهة إذن خطوة إلى الأمام .

الترابي : الجبهة الإسلامية القومية هى بداية التطور الأخير من تطور الحركة الإسلامية السودانية حتى وقتنا الراهن ، وعلى خلاف جبهة الميثاق فى ١٩٦٤ التى كانت مجرد واجهة سياسية تعبر عن المواقف التى تتخذها الحركة فى أطر أخرى فى غالب الأحيان ، اشتملت الجبهة الإسلامية على كل وظائف الحركة .

لم تكن عندنا الجرأة الكافية فى الماضى للدخول بحركتنا الصغيرة فى كيان شعبى واسع دون أن تذوب فيه أو تتشوه توجهاتنا الأصولية للسياسة الإسلامية ، لكن تغيرت الروح الآن وتغير الحجم وتطورت الثقة بالله ثم بالذات ، لذلك أخذت الجبهة شكلها النهائى بعد انتخابات ١٩٨٦ وانتقلت إليها كل وظائف العمل الإسلامى وأصبحت آخر صورة تنظيمية للحركة الإسلامية ، تجاوزت بوظائفها وعلاقاتها ما كانت عليه الحركة فى أواخر حكم مايو وطرأت فيها تطورات واسعة جدا لوظائف العمل الإسلامى .

س : هل عدتم إلى النشاط باسم الإخوان المسلمين خلال الصراع مع حكم مايو ؟ .

الترابي : الواقع إنك تجد التوقيع فى المواثيق الوطنية المختلفة للجبهة الوطنية باسم جبهة الميثاق ، لكن لأن الوظائف الرئيسية لم تكن قد انتقلت إليها مثلما ذكرت آنفا ، فإن وظائف المقاومة والتنظيم والعمل السرى والمجاهدات ظلت مسؤولية الإخوان ، وكان المجتمع نفسه

ينسب هذه الجهود إلى الإخوان ، لكن ظللنا نوقع باسم جبهة الميثاق .

خلال المصالحة الوطنية ، لم تقتض المرحلة تركيزا على الأسماء والعناوين ، وعندما نجحت الانتفاضة فى ١٩٨٥ لم نخرج للمجتمع باسم الإخوان المسلمين ، وإنما استعملنا اسم الاتجاه الإسلامى لفترة من الزمن قبل تكوين الجبهة ، وأظن أننا التقطنا فى ذلك تسمية حركة الاتجاه الإسلامى فى تونس أو نسبة طلابنا فى جامعات السودان .

س : يتحدث الإسلاميون المعاصرون كثيرا عن أولوية الكيف على الكم فى معالجة مسألة العضوية وكسب الانصار للحركة فكيف تعاملتم مع هذه القضية فى السودان ؟ .

الترابى : هناك فى أصل الدين دائما جملة من المعانى مهمة الإنسان الموحد أن يوحدها وألا يستقطبه هذا المعنى عن الآخر . فهناك بين التحفظ والتوكل جدلية ، ولكل ظرف معادلة معينة .. بين تركيز الإيمان فى النفوس وبين توسيع الدعوة ، بين الأفق والعمق ، لكن المعادلة بين هذه المعانى لا تضطرد فى التاريخ بخط مستقيم ، الذى يحصل أن الحركة تنتشر فى قطاع معين وتتفرغ فترة لتعميق مكاسبها فيه وتركيزها فيبدو وكأنها توقفت ، لكن يحصل انفتاح جديد بعد فترة أخرى ويتراجع التركيز على العمق والنوعية ... يمكن أن تجد لهذه الفكرة شبها فى تجربة رسول الله ﷺ ، إذ غلب الكيف على الكم فى مكة ، فلما انتقل إلى المدينة حصل انفتاح كبير واتسع الكم

لكن الكيف لم يحافظ على الدرجة نفسها ، فعكف الرسول ﷺ على هذا المجتمع ورباه وطهره لا لأن المجتمع غاية فى حد ذاته فذلك لون آخر من العصبية للذات وللطائفة ، ولكن استعداد الانفتاح أكبر .. وهو ما حصل بعد فتح مكة .

هذه المعادلة إذن تأخذ شكلا دوريا فى الترجيح بين الكم والكيف ، وفى تاريخ حركتنا كنا نجاهد باستمرار لكى لا ننغلق فى بعد واحد ، وعندما كانت شروطنا فى استيعاب العناصر المسؤولة داخل التنظيم عسيرة فى أوائل الستينات ، أوجدنا هيئات وأسماء جديدة للانفتاح على عامة أبناء المجتمع ، مثل : جبهة الميثاق ، الشباب الوطنى ، الجبهة النسائية الوطنية ، المعلمون الوطنيون ، وأصبحنا نؤدى أغلب وظائف العمل الإسلامى بغير الشعبة والأسرة ، واعتمدنا بدلا من ذلك الندوة والمظاهرة والصحف .. إلخ . غير أنه بمرور الوقت وجدنا أنفسنا أمام مشكلة كبرى سببها عدم الانسجام فى وتيرة الاهتمام بالكم والكيف ، فقد كان الكم يمضى فى اتجاه والكيف فى اتجاه آخر ، وقامت بينهما مقابلة ومناظرة كادت تؤدى إلى أكبر انشقاق فى تاريخ الحركة لولا أن تداركنا المسألة .

هذه تجارب نحاول اليوم فى الجبهة الإسلامية أن نستفيد منها : كل تراث الكيف الإخوانى فى أحكام التنظيم وعلاقاته واختصاصاته وتوثيقه ومراجعته ومحاسبته واهتمامه بالتربية والثقافة الروحية والأخلاق .. كل هذا التراث نريد أن نوحده مع الكم الذى هو الدعوة العامة الشعبية التى جمعت لنا مئات الألوف من البشر ،

ولا نريد أن يتقدما متوازيين متنافرين ، لكل أسلوبه وثقافته وخطابه لأنهما إذا توازيا بهذه الصفة تحصل فتنة واستقطاب وعصبية للكم وعصبية للكيف وصراع بينهما لا ينفع الحركة ولا يتقدم بها .

إن هذا التعامل مع القضية نادر فى البلاد الأخرى ، وأظن أن هناك اعتبارات كثيرة لتفسير ذلك ، بعضها موضوعى متعلق بحجم الفتنة على الإنسان وبعضها ذاتى متعلق بالعامل الإيمانى العقائدى ، إن الكسب الدينى للإنسان هو فى الحقيقة مرتبط أساسا بهذين العاملين : بالعامل الخارجى (الابتلاء) ، فإذا اشتد الابتلاء والفتنة على الإنسان تراجع كسبه الدينى ، وإذا خف الابتلاء زكا وتنامى .

كذلك إذ زاد إيمان الإنسان زاد بالضرورة كسبه الدينى وإذا نقص نقص كسبه ، فإذا كان الإيمان ثابتا وزادت الفتنة تراجع كسب الإنسان وإذا زاد معها الإيمان يكون الدين ثابتا ، فإذا تجاوزها إيمان المرء زاد كسبه برغمها .

فإذا قارنا الوضع بالدول الإسلامية الأخرى من زاوية الفتنة ، وجدنا أن السودان يتمتع نسبيا بحرية فطرية فى البنية الاجتماعية للدولة أكثر من كثير من البلاد الأخرى التى قامت بها الحركة الإسلامية ، ومثلما تشكل الحرية ابتلاء للإسلاميين بما تتيحه لهم من غوص فى التفكير والعمل والتنظير لابد أن يستغلوه ، فإن الخوف يزين لهم نظرية العمل الداخلى والانغلاق النفسى ويجعله ضرورة ويزينه أحيانا فيجعله فضيلة ، والحمدلله أننا ما تعرضنا لهذه الفتنة .

أما العامل الثانى فيتمثل فى أن قيادة الحركة الإسلامية فى السودان – أقصد طبقة القيادة فى السودان – خرجت كلها من القطاع الحديث المستنير ، ولستعدت لمواقف فكرية متحررة ومتجددة واجتهادية ، وبدأت تمارس وظيفة النقد والمراجعة والتقويم منذ الأيام الأولى للحركة ، الأمر الذى لم يكن وارداً فى حركات إسلامية أخرى لأنها فى الحقيقة لم تتجاوز كثيراً النمط التقليدى السائد فى العالم الإسلامى ، يأخذ العضو فيها التقليد السائد لينفذه هنا فى السودان ، ومنذ كنا طلبة ، كان لدينا استعداد للتقويم والنقد والابداع أو سمة الاجتهاد ، فكنا نجدد أنفسنا ونجتهد ونتوسع ، وكان عندنا – وهذا أمر مهم جداً – وعى كامل بما حولنا ، بوضعنا فى التاريخ .

أن حركات إسلامية كثيرة لا تسأل نفسها هل تقدمت فى السنوات العشر الأخيرة أم تأخرت ؟ وإذا تقدم أفراد بنسبة معينة لا يقارنونها إلى نسبة الزيادة من حولهم ، زيادة السكان ، وزيادة العلمنة،لذلك قد يكونون مطمئنين جدا إلى تطورهم بينما هو لا يمثل إلا نسبة قليلة فى الحساب العام ، وقد ينجحون فى افتكاك موقع أو موقعين فى الجامعة بينما تحتل العلمانية القطاع الاقتصادى كله وتعلمنه وكذلك تفعل بالقطاع القانونى .. إلخ .. وبغياب النظر التاريخى تتحول سياسة الحركة إلى ضرب من الأحلام .

إنك لا تجد النظر التاريخى فى قراءتهم للقرآن ولا فى قراءتهم للسنة ولا للتاريخ الإسلامى ، ويمكن للواحد منهم أن يحاججك بنظرية فقهية من عهد الصحابة أو التابعين غير قابل أبدا أنها قد تكون

منسوبة أساسا إلى ظرف تاريخى محدد ، وأن مسيرة الدعوة الإسلامية ذاتها لم تتم فى لحظة واحدة وإنما كانت ممتدة فى التاريخ وفقا لسنن وأحكام ينبغى أن نفهمها وندرسها . إن النص الدينى لم يكن منقطعا عن الواقع ، والقرآن نزل منجما ، كانت الواقعة التاريخية تسبق ثم يأتى النص فيعالجها ، لكن المسلمين انقطعوا عن الواقع فتجاوزتهم حركته ، رغم أن جوهر التدين هو التوحيد بين الواقع والمثال .

س : هل يعكس دستور الحركة ، أعنى قانونها الإسلامى ، هذه الحركة وهذا الإيمان بأهمية الواقع والتاريخ ؟ .

الترابى : وضع الدستور فى منتصف الخمسينات ، وروجع فى أوائل الستينات ثم فى أواخرها ، ثم روجع فى أوائل الثمانينات ، والدستور كان دائماً وثيقة « رجعية » بمعنى أنه يعبر عن عبرتك بالماضى ، القانون ذاته بالمناسبة هو علم « رجعى » يعبر عن الأعراف بطريقة نصية ، لكن فى اليوم الذى يدون فيه غالبا ماتكون الحياة قد تقدمت . لذلك قد يكون القانون أداة للتجميد .

وفى مسيرة الحركة بالسودان ، يمثل النظر إلى الدستور أحد المداخل لمتقويم ، ولو نظرت إلى الدستاتير الأربعة فستجدها معبرة بدون شك عن بعض أوجه التطور والتقدم فى مسيرتنا . حدد الدستور الأول وظيفتنا السياسية فى أن نعد المشروعات الإسلامية ونتقدم بها إلى أولى الأمر ، تقليدا لما انتهت إليه وظيفة العالم في العهود المتأخرة للحضارة الإسلامية ، الموعظة والنصيحة للحاكم ، وللحاكم أن يقبل منه أو أن يطرده أو يقتله .

لكن فى الدستور الأخير نجد محاولة لوصف الحركة بكل أبعادها التى انتبهت إليها خلال مسيرتها التاريخية ، فى محليتها وفى عالميتها ، باعتبارها حركة فعالة فى الواقع مؤثرة فيه ، تحاول تغيير المجتمع وتقوية استعداده الداخلى لمقاومة الفتن التى قد تصرفه عن أداء وظيفته الدينية الكبرى ، الخلافة عن الله فى الأرض .

هناك أربعة أو خمسة معان تجدها فى هذا الدستور لم تصل إليها الحركة إلا بعد جهد وممارسة ، وهكذا شأن التطورات التاريخية والفقهية والعلمية : كلها لا تبدأ فى الأول متكاملة ولكنها تبدأ جزئية معنى معنى ، ثم تتراكم مجموعة من التجارب والمعارف ليستخرج الناس منها قانونا .

دستورنا إذن يعبر عن تجارب طويلة ، وأهدافه اليوم هى أهداف دولة ومجتمع ، وليست أهداف جماعة أو طائفة ، لو نظرت أيضاً إلى أى من خطوط تطور الحركة .

لنأخذ العضوية مثلا .. فى المرحلة الأولى كانت العضوية صفوية فى البيئة المباشرة للحركة ، كانت الحركة مسجونة فى الصفوة وكان أى تجنيد خارج الطلاب يسمى الشعبة الخارجية .

كان هناك ذكور فقط من غير أناث ، شماليون من دون الجنوبيين مثقفون بدون عوام .. لكن بعد فترة شعرنا بالأزمة وعالجناها ، حتى أن عدد النساء فى بعض الشعب تجاوز عدد الرجال فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات .

من جهة أخرى ، وسعت الحركة نشاطها الاجتماعى الواسع الذى شكل الأساس الحقيقى للجبهة الإسلامية وحصل تطور رهيب فى العضوية دون أن ينقطع سعينا لتطوير النوعية من خلال تطوير ثقافة إسلامية معاصرة ، ثم دخل الإخوة الجنوبيون فى الحركة وكان ذلك تطورا تاريخيا ، أثبت فى جملته مقولتنا بأنه ماينبغى للوضع القائم ، للشكل أن يسجنك عن التطور ، وما ينبغى لبنيتك الراهنة أن تسجنك عنه ؟ .

من زاوية اقتصادية مثلا كانت الحركة مجموعة موظفين منعزلين عن المجتمع ، لهم نمط حياة معين واهتمامات معينة ثم اتسعت الحركة ودخلتها فئات اجتماعية أخرى لها نشاطاتها الاقتصادية وإمكانياتها المادية الواسعة ، وهذا يحول دون أن تكون الحركة تعبيرا عن طبقة معلقة .

هذا التوسع يؤثر فى الحركة إيجابيا وإن كنت لا أدعى أننا استوعبنا كل هذه التطورات .. لكننا نجتهد لمواكبتها وتسخيرها لتقدم الدعوة بكل إمكانياتنا . ونحن اليوم أكثر أهلية من اليوم الذى كانت عضويتنا فيه محدودة وقاصرة ، وأكثر اقترابا من شمول الفكر والنظام الإسلاميين لقد ظللنا دائما نرفع شعار الشمول لكننا كنا أقرب فى الحقيقة إلى الحركات الصوفية ، نعمل أساسا فى ميدان التكوين النفسى للبشر ، وهناك حركات لم تتجاوز بعد هذه المرحلة .

لكن بعد فترة بدأنا نتعامل مع القضايا السياسية ، وتطور هذا التعامل من برنامج هيئة ضغط إلى برنامج حزب سياسى ، من تعامل

بالدعوة والجدال إلى تعامل بالقوة والجهاد (صراع الجبهة الوطنية ضد نميرى) وبالمعارك الديبلوماسية ، وبدأت الحركة تتجاوز مرحلة الاقتصار على البعد التربوى إلى ربطه بالأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية .

وظيفة العمل الاجتماعى بدأت تتجاوز حدودها الضيقة من المشاركة فى الأفراح والمآتم والجمعيات التعاونية الصغيرة إلى مباشرة حاجات المجتمع الرئيسية الكبرى ، ثقافيا واقتصاديا بتكوين الهيئات الكفأة العاملة .

فى المجال التنظيمى الحركات الإسلامية تتقدم فى مجاهداتها ولكن تنظيمها يظل متخلفا باستمرار ، كما أن الأصول الفقهية التى تعين على التنظيم مثل الشورى والاجماع ووحدة الجماعة شبه معطلة مثل كل المعانى الفقهية والعقدية التى يمكن أن تبنى تنظيما ناجحا متقدما ، فتجد التنظيم بسيطا ساذجا يحتكر كل شىء ، ويحتكر الرئيس داخله كل شىء ، بعيدا عن توزيع الاختصاصات والمسؤوليات والتوثيق والتخطيط .

فى المجال الأمنى ، كنا جماعة غير مشغولة بهذه القضية أصلا لا نهتم إلا بأمننا الخاص ، ثم اكتشفنا أن لا مجال لاستقرار المجتمع الحديث دون رعاية أمنه العام ، مثلما اكتشفنا أهمية العمل الاقتصادى الواسع فى مرحلة متأخرة من مسيرة الحركة ، عندما أدركنا أثر الضغوط الاقتصادية الدولية وتأثيرها على دور الإسلام فى بلادنا وجدنا إلى القبول بأنماط معيشية تقوم بالضرورة على التبعية للخارج .

فى المجال الديبلوماسى ، نحن كنا نعمل منقطعين عن العالم كله إلا الإخوان .. عندما نذهب إلى بلد من البلدان لا نذهب إلا إلى الإخوان ، كأن العالم كله عبارة عن هذه الجيوب الداخلية ولم نكن نولى اهتماما إلى القوة الدولية الفاعلة والمؤثرة . دول المنطقة ، والقوى العظمى ، والهيئات الدولية ، هذه جهات لم تكن واردة فى برامجنا ، ثم اكتشفنا فيما بعد أن التعامل معها فى ضوء خطط مدروسة أمر محتوم إذا كنا نفكر لبلادنا وليس لمجموعتنا الحزبية .

كل هذه الأبعاد كانت تقربنا من شمول الفكرة الإسلامية ، لأن وحدانية الله تعالى هى أن تعبده فى كل شىء ، ونحن احتجنا إلى وقت طويل لنتعبد بكل أوجه حياتنا العامة ومازلنا نجاهد بالنظر وبالعمل للتقدم فى ذات الدرب .

س : تبدو الحركة من خلال هذا العرض متقدمة باستمرار ، ألم تحصل نكسات فى الطريق ؟ .

الترابى : أنا أعتبر الجمود نكسة فضلا عن التقهقر إلى الماضى فى الفكر أو الحركة ، فأنت إذا توقفت تكون قد انتكست لأن ابتلاء الزمن متقدم دائما ، والله سبحانه وتعالى يقلب الظروف يوما بعد يوم وكل فجوة بينك وبين حركة الزمن التى هى الابتلاء الأساسى فى الدنيا هى نوع من الانتكاس .

واستطيع القول أن الحركة قد مرت بفترات من الجمود غالبا ما نتجت عن صراعات الانتقال من مرحلة إلى أخرى وكانت أخطرها

ما بين ١٩٦٧ و ١٩٦٩ عندما احتدم الصراع بين الجديد والقديم ، بين الكم والكيف ، وتوقفت مسيرة الحركة تقريبا طيلة العامين . كذلك حصلت نكسة حقيقية أبان الحكم العسكرى الأول (حكم عبود) فقد كانت الحركة متخوفة جدا من تكرار ما حدث فى مصر وأفزعتها صورة عبود رغم أنه لم يكن يستهدفها فقد كانت ماتزال حينئذ صغيرة فى دينها وحجمها ، وصدرت قرارات متسرعة بإيقاف نشاط بعض الأسر والشعب واتخاذ احتياطات مبالغ فيها أدت إلى تعطيل نمو الحركة وتقدمها من ١٩٥٨ إلى أواخر ١٩٦١ تقريبا .

الحوار الثاني*

أجراه الأستاذ / عمر عبيد حسنة

* نشر هذا الحوار في مجلة الأمة في العددين الحادي والخمسين (ربيع الأول سنة ١٤٠٥هـ ديسمبر ١٩٨٤ م) والثاني والخمسين (ربيع الثاني سنة ١٤٠٥ هـ يناير ١٩٨٥ م)

تقديم

اقتضت سنة الله أن لا تقتصر عملية الابتلاء على جوانب الشر ، كما يتبادر إلى كثير من الأذهان ، بل قد يكون الابتلاء بالخير أشد وفتنة أقوى ، ومن الخطورة بمكان تلك التربية النصفية ، حيث تسيطر على عقلية بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية ثقافة الابتلاء بالشر فقط فيصاب بالعجز عن التعامل مع ابتلاءات الخير ويسقط عند الصدمة الأولى ، حتى وصل الأمر عند بعضهم إلى الاعتقاد أن الابتلاء بالشر وحده دليل صواب الطريق ومقياس صدقه وسلامته ، بهذه التربية النصفية يصبح بعض دعاة الإسلام عاجزين عن التعامل مع الخير ، وإن أرادوا ذلك فقد لا يحسنونه بسبب من غيابه عن ساحة التصور والتدريب التربوى ، والله تعالى يقول : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وإِلَيْنَا تُرْجعُون ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، والعمل الإسلامى اليوم قد يعتريه بعض التخبط والتعثر بسبب من هذه التربية النصفية التى أصبحت وكأنها ضربة لازب عليه .

إن فقه المرحلة وحسن اختيار الموقع الفاعل من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة ، وفقه سنن التغيير والمدافعة وامتلاك وسائله الحكيمة يكاد يكون قضية العاملين للإسلام الملحة اليوم . لابد من إدراك جغرافية الساحة التى يتحرك فيها الدعاة اليوم وخلفياتها المتعددة ، وقد اعتبر فقهاؤنا العرف أحد مصادر التشريع الفرعية . ويفتقد صفة الاجتهاد العاجزُ عن إدراك أعراف الناس

وظروف معاشهم وطبيعة حياتهم لابتعاده عن الساحة وانسحابه منها : لذلك تقرر بأنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان .

إن العمل للإسلام اليوم يقتضى حساً صادقاً وإدراكاً واعياً وعقلاً راجحاً واطلاعاً واسعاً وحسن فهم لمعركة الإسلام وخصومه ، حيث تتبدل الظروف وتتغير المشكلات وتتطور المواجهة ، إنه باختصار يقتضى فقه المراحل .

من هنا تأتى أهمية هذا الحوار مع الدكتور حسن الترابى الذى يعتبر بحق أحد شيوخ الدعوة الإسلامية ومنظريها المعاصرين ، ذلك أن أصوله العلمية الشرعية وثقافته العصرية ومعرفته لعديد من اللغات الأجنبية وتقلبه فى مواقع علمية وثقافية وسياسية وقضائية إلى جانب الابتلاءات المتنوعة التى تعرضت لها الحركة الإسلامية فى السودان والعالم أكسبته قدراً من البصارة والنفاذ ، أو ما يمكن أن نسميه بـ « فقه المرحلة » . إنه يمتلك نظرات هامة فى قضية التجديد والاجتهاد وفقه المراحل ، لابد أن تخضع للحوار والمناقشة للانتقال بواقع العاملين فى الحقل الإسلامى من النافع إلى الأنفع ، ومن الصالح إلى الاصلح ، ومن الحسن إلى الأحسن ... إن هذا الحوار يكشف عن الكثير من جوانب القضية الإسلامية فى السودان ، ويشكل النافذة الأمينة لرؤية التوجه الإسلامى من الداخل والعقلية التى تتعامل مع هذا التوجه ويغنى رؤية دعاة الإسلام بتقديم تجربة ميدانية للانتقال من المبادىء إلى البرامج سوف تنعكس بالضرورة على وسائل الدعوة وعقلية الدعاة .

عمر عبيد حسنة

معطيات التجربة الميدانية :

س : لا شك ، أن عملية التحول إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان ومرور عام على ذلك ، واجه مشكلات عملية قد لا تكون كلها فى الحسبان .. ماهى المعطيات التى يمكن أن تنعكس من خلال التجربة الميدانية على مناهج وتصورات ووسائل العاملين فى الحقل الإسلامى بعد أن اختبرت بعض الاجتهادات وجربت بعض الوسائل فى الواقع التطبيقى ؟ .

الترابى : كانت حركة الإسلام فى مرحلة الدعوة تعالج قضايا الإسلام على صعيد النظر .. وكان يتيسر عليها أن ترتب صور الأنموذج الإسلامى بطلاقة وأن تعرضها على الناس ، كذلك ، فى قمة مثالها حتى تُرغِّب الناس فى النهضة إليها .. وكانت لا تأبه كثيراً بالمشكلات العملية وللقوى التى يمكن أن تثور حين يتنزل الإسلام على الواقع ، ولذلك لم تكن تأخذها فى الاعتبار وهى تقدر نظريات المنهج الإسلامى كما تتصوره وكما تدعو إليه .

فلما بلغنا من بعد الدعوة مرحلة الدولة ، أصبح لزاماً أن يتنزل الدين ، فى شعاب أحكامه الفرعية ، على الواقع .. وبدت لنا من الصورة الواقعية ، مشكلات ما كانت لتلوح للناظر من قبل .. وبدا أن الأحكام تتوارد على الواقع وتتناسخ وتتعارض مقتضياتها أحياناً .. ونشأت حاجة ماسة إلى تصريف الأحكام وترتيب أولوياتها ، لأن فى تطبيق بعضها ماقد يؤدى إلى تفويت مصالح إسلامية أخرى مقدرة ،

أو يُحدث فتنة تضر بمستقبل الإسلام .. وكان لابد من فقه أدق من الفقه النظرى يرتب أولويات الأحكام ويناظر بين قيمها المختلفة ويؤخر ويقدم ويصرف بين هذا الواقع .. هذه مشكلة طرأت لفقه الإسلام .

وهناك مشكلة أخرى : فقد بدا جليا أنه لا يتيسر للجهد البشرى – مهما بلغ من الجهاد والاجتهاد – أن يحقق كل أحكام الإسلام دفعة واحدة ، ذلك أن هذا الدين التوحيدى يشمل الحياة كلها ولا يمكن أن يستوعبه جهد البشر ولا اجتهادهم إلَّا بمعاناة متطاولة يتعاون عليها الناس ويمتد لها الزمان والإمكان .. ولذلك كان لزاماً أن نبدأ من أول الطريق ومن القضايا الجوهرية حتى نتوفر ، بما لدينا من جهد ، على تحقيقها وحتى نخصص الطاقة الدينية المتاحة فى المجتمع ، وهى فى أول العهد تظل طاقة محدودة ، ونجندها لتأسيس أسس الدين .

ولكن تراثنا النظرى – بصوره المثالية للإسلام – كان يعلق الناس – كما ذكرت – بأعلى القيم .. وبدأ الفرق شاسعاً بين ما تحقق من صورة الإسلام وما كان الناس يتخيلون .. وحاكم بعض الناس هذا الواقع المحدود بذلك المثال غير المحدود وارتابوا فى صدق هذا الواقع .

ومن خلال هاتين المشكلتين ، بدا لنا أن فكر أو فقه مرحلة الدعوة لابد من أن يتهيأ للتطبيق .. ولو أننا استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا ، لقدمنا فكر الإسلام ، لا على أنه مثال خيالى لا يكاد يتحقق إلا لمجتمع الملائكة أو عبر مجاهدات أجيال كثيرة تتكامل فيها منجزات الإسلام ، ولعرضناه كماً واقعياً ولبسطنا بين الناس صورة

المجتمع السنى الأول الذى كان مجتمعاً تلوح فيه التطلعات نحو القيم العليا ولكنه بواقعه الماثل بالفعل كان يحتوى ويشتمل على كثير من القصور عن ذلك المثال ، وكانت فيه طوائف على مختلف مراحل الطريق ، منهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات .

وهذه الصورة الواقعية التاريخية للأنموذج السنى الأول تجعل الإسلام أقرب منالا للناس ، وتزيد أملهم فى أن يحققوه كما تحقق ولا تُوجسهم من بُعد مثاليته .. ثم لو كان لنا أن نبدأ من حيث انتهينا لعرضنا كذلك فقه الإسلام عرضا دقيقا يركز على مقاصد الدين وضرورة الترجيح دائماً بين تلك المقاصد وترتيبها حتى إذا نشأت حاجات العمل ، تزود الناس بفقه لتصريف الأحكام وترتيبها ولم نبسطها بسطاً أفقياً تترتب فيه كلها كأنها سواء .

وأحسب أننا فى مرحلة الدعوة ، من اهتمامنا بعمومات النظر ، من تعويدنا على منقولات الفقه عندما غدا فقه الأحكام مدونات مجردة شيئاً ما عن الواقع ، تفصل الأحكام وترتبها لأغراض التعليم ولأغراض التبويب النظرى لا لأغراض التطبيق بالفعل ، أحسب أننا فعلنا شيئاً ما بذلك المنهج فى أخذ الفقه الدينى .. والدين واقع وعمل ، وهكذا تنزل القرآن ذاته ، وكان ينبغى أن يطرح حيث هو ، فقهاً للعمل لا للنظر .

فقه المرحلة وحسن اختيار الموقع :

.... وهناك أمر آخر أيضا ، وهو أننا لم ندخل عنصر الواقع إدخالا تاماً فى تقديراتنا .. وليس الدين إلا محاولة للتوحيد بين الأنموذج الشرعى المثالى وبين البيئة المادية والاجتماعية الواقعة .. ولا يتم فقه الدين وعلمه إلا إذا تكامل علم الشرع المنقول بعلم الواقع الاجتماعى ، محليا كان أو دوليا ، ماديا كان أو اجتماعيا ؛ لأن حركة التدين تتأثر صيغتها النهائية بهذا الواقع الذى هو الإطار الذى ينصبه الله سبحانه وتعالى ؛ ابتلاء للعبد .. ولا يمكن أن نتصور الدين إلا أنه حصيلة التفاعل بين القيم والمعايير الشرعية وبين قوى الواقع المختلفة .. ولذلك لا يمكن أن يكون فقه المتدينين إلا تكاملاً واتحاداً بين معرفة وثيقة بواقعهم الاجتماعى والدولى وبمشكلات الحياة المادية ، إلى جانب أخذهم من فقه الشرع المنقول .

وعندما قام الإسلام فى السودان – مثلا – اتحدت مصالح الإسلام مع مصالح الكيان الإسلامى المتمثل فى السودان وأصبحت قضايا الفقر والتخلف الاقتصادى قضايا ملحة من قضايا الدين ، لأن الدين لا يتم إلا بمعالجتها .. ولأنه من خلال التخلف الاقتصادى يمكن أن يفتن أهل السودان – جماعة – عن التزام شرع الله سبحانه وتعالى أو أن يُغْزَوْا بالمذاهب التى تقربهم إلى الذين يلتمسون عندهم العون الاقتصادى .. وبالفقر الاقتصادى يمكن أن يفتن الأفراد كذلك ويتعسر عليهم أن يلتزموا أحكام الشرع للمعاملات ، بل يمكن أن

ينشغلوا بحاجات المعاش الملحة عن التأمل فى قبلة الدين وهموم الحياة العليا ومهمات البناء الحضارى للسودان .

تجدد الابتلاء سنّة ماضية :

.... ولذلك ، عندما جاءت مرحلة التطبيق ، اقتضت بالفعل تطوراً هائلاً فى ذهنية الدعاة أنفسهم وفى توجهات اجتهادهم .. ولا أريد أن أتحدث عن التحول الذى وقع فى نفوس الناس الآخرين أو ماوقع فى نفوس الذين يريدون أن يكيدوا للإسلام ، ويكفى أن نقول : كيف اضطر الدعاة أنفسهم لأن يكيفوا أنفسهم للابتلاء الجديد .. وتلك سنّة ماضية ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يرضى للعبد أن يجمد على حال من التدين واحدة ؛ سواء أحسن فيها أو أساء ، وإنما يُقلّب له الابتلاء يمحصه بكل وجوه التدين وليقتضيه فى كل مرحلة جديدة أن يعرف الله سبحانه وتعالى ، ليعرف مقتضى عبادته فى الأرض ويبذل من ذات نفسه جهداً متجدداً لتقبُّل الحق ثم لالتزامه .

من المبادئ إلى البرامج :

س : فى تصورى أن الاختبار الحقيقى للدعوة الإسلامية الحديثة ، يكمن فى القدرة على الانتقال من مرحلة المبادئ إلى مرحلة البرامج .. ألا تعتقدون بأن مؤسسات الدعوة – وهى مرحلة قبل مرحلة الدولة – يمكن أن تكون مراكز تدريب أيضا على الحياة الإسلامية ، وعلى التطبيقات الإسلامية باعتبارها عينة

من عينات المجتمع إذ الأصل فيها أن تحمل هموم المجتمع القائم وأن تعيش صورة مصغرة تطبيقية عن المجتمع المنشود وتكون مركز تدريب للدعاة حتى إذا ما حانت مرحلة تطبيق البرامج استطاعت أن تقدم العناصر البشرية المدربة والقادرة على فقه مرحلة التطبيق .. وحسن التعامل معها ؟

الترابي : نعم فى عهد أطبق فيه النسيان وعمت الغفلة عن الدين كله وأصبح الدين بأصوله الأولى غريبا عن المجتمع ، وسادت فى مجتمعاتنا كذلك فترات من تاريخ إسلامى انحسرت فيها كثير من معالم الدين ، وتحولت فيه كذلك كثير من صور ممارسة الدين إلى مجرد عواطف ظاهرية ليس وراءها من أصول الإيمان فى النفوس بقايا ، تناصر هذا التاريخ المبتعد عن الدين مع الغزو الثقافى الغربى ، الذى أخرج الدين تماما من الحياة العامة ومن قلب هموم المجتمع ، كان لزاماً على الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية عندئذ أن تصوب جل دعواتها ومناظراتها ومجادلاتها على هذه الأصول حتى تحيى شعاب الإيمان من جديد ، لا إسلام بعاطفة الخوف من الله والرجاء من الله وحسب ، ولكن تصويبا لهذه الدوافع الإيمانية نحو قضايا التدين المختلفة وللمناطق التى انحسر فيها الدين وأصبحت بقع إشراك .. واتسعت هذه البقع حتى حاصرت الدين فى زاوية محدودة من الحياة .

كان لزاماً أن تصرف الحركة الإسلامية جانباً كبيراً من همها لهذه القضية .. ولكن يُؤسف المرء أن يقول : إنه على تطاول الزمن وعلى

تذكر بعض المسلمين لهذه الأصول ، كأنما انحبست الحركة الإسلامية فى هذه المرحلة لوقت أطول مما ينبغى . بل إن دعوتها قد ولّدت عند المسلمين طاقات من الإيمان هائلة ، فبدأت حركة المسلمين المنفعلة بذكر الله سبحانه وتعالى فى مجالات الحياة العامة ، تعبر عن نفسها فى حركات سياسية وفى توجهات وتطلعات اقتصادية وغير ذلك .

ومع ذلك ، فإن فكر الدعوة الإسلامية ظل حبيس هذه المرحلة ، حتى إنك لتجد أن الحركة الإسلامية حتى فى أشكال تنظيمها لا تضرب أنموذجا صادقاً للإسلام ، فمثلا تجد أن القيادة غير شورية أو تجدها شورى شبه وراثية ، وتجد علاقات المناصحة والمناصرة والموالاة لا تمثل أنموذجاً للدولة الإسلامية التى يريدونها .. ولو أنهم نقلوا الصورة التى تقوم بها جماعتهم إلى المجتمع لكانت صورة شائهة للإسلام .. ذلك من محض الغفلة عن ضرورة تنزيل الدين على الواقع وتعلم هذا الفقه الواقعى .

التدرج فى التطبيق :

... وكان يمكن لو أن حركة الإسلام ، بدلا من أن تنتظر الفتح الأكبر الذى يقوم فيه المجتمع كله بالإسلام ، أن تحاول فى جوانب الحياة المختلفة أن تقيم نماذج جزئية فى جانب من الاقتصاد وفى جانب من السياسة وفى جانب من الفكرة وفى جانب من المجتمع .. ونحمد الله سبحانه وتعالى فى السودان ، أن تهيأ لنا شىء من ذلك الكسب ، وأن حركة الإسلام بالرغم من أنها تعتصم بالأنموذج الكلى وتصر على

أن الدين توحيد ، إلا أنها تعلم أنه لبلوغ الكل لابد من البدء بالجزء .. فهى لا تؤمن ببعض وتكفر ببعض بل تؤمن بالإسلام كله ولكنها تحاول أن تطبق منه ماتيسر .. ولا تقدر أنه لابد من انتظار مرحلة الدولة حتى يتمكن الدين بكل جوانبه ، ولكن يُمكن دون ذلك من مجتمع مازال فيه – بحمد الله – بقية من إيمان ، أن تطبق .. فنشأت مؤسسات اقتصادية للإسلام ومؤسسات اجتماعية ومؤسسات ثقافية جُرِّب فيها تطبيق الإسلام عملياً .

وتوجهت الحركة إلى ذات نفسها وحاولت أن تعبرِّ فى أشكالها عن أحكام الإسلام الفرعية .. فعندما أصبح الإسلام هو شرعة المجتمع كله ودخلت كل هموم المجتمع فى هموم الدولة ، كانت هذه المبادرات الأولى خير ما يعين حركة الإسلام وفكر الإسلام على أن يستوعب حركة المجتمع بأسره ، بتوسيع ذات النماذج وتطبيقها ، كما تأخذ الأنموذج التطبيقى والتجربة من المختبر إلى السوق وإلى الإنتاج الواسع .

كانت تلك البدايات هى فى واقع الأمر مفاتيح حل مُغْلَقات المشاكل الاجتماعية ، وهذا هو أخطر ما يطرأ على الحركة : أنها من الهم بذات أمرها (أو إذا تطورت من الهم بعلاقتها المباشرة مع المجتمع : كيف تؤثر على المجتمع وكيف يرتد المجتمع عليها) ، فجأة تجد نفسها وقد اضطرت إلى أن تحمل أمانة كل الأمة وأن تستوعب كل همومها جملة واحدة .

السنن الجارية والسنن الخارقة :

س : من المشكلات التى يعانى منها السودان وكثير من البلدان الإسلامية الأخرى هذه التركة الثقيلة التى هى ثمرة لتاريخ طويل من الانسلاخ عن الإسلام ولأنماط متعددة من التجارب والتطبيقات والقوانين والتى قد لا يكون للإسلام فيها النصيب الكبير . ولا شك فى أن التحول إلى النهج الإسلامى وإلى تطبيق الشريعة سوف يواجه كل هذه المشكلات ، ولابد للتغلب عليها ومعالجتها من زمن وجهود متطاولة .. ومن هنا يُخشى أن يُصاب بعض بسطاء المسلمين أو بعض من يعيشون الجانب النظرى ولا يعانون التجربة التطبيقية ، ببعض الإحباطات نتيجة الظن أن عصا الإسلام يمكن أن تكون سحرية ، تعالج الواقع القائم بالسُّنَّة الخارقة وليس السنة الجارية ؛ لأن معاناتهم التاريخية كانت لقضايا نظرية جدلية مثالية ، بينما القضية تحكمها سنن المدافعة والابتلاء والتطبيق المرحلى .. وقد نرى أن الجيل الأول القدوة لم يعان المشكلة نفسها لأنه كان يعيش التدرج فى التشريع والتطبيق معا .. أما بالنسبة لنا فقد اكتمل التشريع .. وقد لا نستطيع بعد هذا الانسلاخ الطويل عن شمولية الإسلام إلا ممارسة التدرج فى التطبيق مع رؤية للمواقع جميعاً .. وفى الوقت نفسه قد لا نستطيع أن نغطى فى جيل ما أو فى

زمن ما إلا موقعاً أو أكثر ، لكننا فى الوقت نفسه لابد أن نرى الصورة الكاملة التى يجب أن يرتادها العاملون للإسلام ؟

الترابى : إذا نظرنا إلى واقع السودان خاصة ، وهو بقدر ما يمثل جانباً من واقع المجتمع المسلم عامة ، فإنه ركام من تراث سابق للإسلام ، لأن دخول الإسلام للسودان لم يكن فتحاً حاسماً يطهر الأرض من الباطل كله أو جله ويقيم مقامه مؤسسات الحق ، وإنما دخل الإسلام السودان ومازال عملية استكمال الدين ، وعياً وممارسة وشعائر وأعرافاً اجتماعية ، تتقدم إلى يومنا هذا .

وأمر ثان : نصيبنا من تاريخ الإسلام بخيره وشره ، وفى تاريخنا كما هو معلوم عناصر ضربت على الإسلام ، وانحرافات ، وبعضها التبس بحق الإسلام ، وأصبح لا يتيسر إلا للفقيه المتبصر أن يميزه بين مُدخلات تاريخية غريبة عن الإسلام وبين أصول الإسلام الشرعية .

يضاف إلى ذلك أن الصور التى تيسرت للمسلمين تاريخياً من التطبيق فى نظام الجماعة ونظام القيادة والمجتمع – وهى صورة بالطبع كانت محدودة بقدر طاقاتهم المحدودة عندئذ – جمدت فى أذهان الناس وحسبوها هى الصورة النهائية الأزلية لتطبيق الإسلام ، بينما يتاح أن يتسع الناس لبلوغ مثل الإسلام .

ثم خضع السودان للاستعمار ، ولا شك أن المستعمرين المتمكنين قد استطاعوا أن يفرضوا عليهم شيئاً من تراثهم وحضارتهم وأن يحاصروا الدين ويشوهوه بما يوافق أهواءهم .

... والسودان يثوب اليوم إلى الإسلام وهو يحمل كل هذا الركام .. ويقتضينا الأمر فقها دقيقا لنتبين هذا الواقع ، فنستصحب بقية الخير التى كانت تمثل قيم الإسلام أو بعض الخير الذى اهتدى إليه السودان بتجربته البشرية ، مما يمكن أن يكون وسيلة للتعبير عن قيم الدين ، ولأن نميز بين هذا كله وبين ركام التجارب والتقاليد والأعراف المخالفة للدين .. ويستدعى هذا الفقه ذاته زمناً من النظر فى شأن الواقع السودانى بهذه المعايير الجديدة التى لم نُحكم بَعْد استعمالها .. ومن بعد هذا الاجتهاد الدقيق ، يقتضينا الأمر جهاداً طويلاً لتجاوز هذا التاريخ والسعى إلى الله سبحانه وتعالى زلفى .. وقد يُجدينا جداً كما أسلفت ، أن نعرض الدين بالأنموذج السنى الأول كما كان بالفعل ، لأنه كان أنموذجا انتقاليا ، وهو أنسب للمسلمين فى مراحل الانتقال – الانتقال من المجتمع الجاهلى إلى المجتمع الإسلامى – منه فى مراحل المضى على طريق مستقر .. فلأسر المسلمة كانت أسراً يكتنفها كثير من الأضطراب والعقائد الباطلة أحيانا وتطرح فيها قضايا الدينامية حول علاقات بآباء غير مسلمين وبأزواج غير مسلمين .. والدولة المسلمة كانت كذلك دولة انتقالية وإن كان قائدها يقوم معصوماً بهدى من الوحى وهدى من الله ، فإن جماعات المسلمين التى كانت تدخل الإسلام تَربَّت على جاهلية وما انفكت فيها بقية من جاهلية ، تطهر منها بعض الناس ولكن مايزال بعض الناس يعانون منها .

فالمجتمع الإسلامى الأول كان مجتمعاً انتقاليا ، وكانت مشكلاته الحية شبيهة جداً بمشكلاتنا .. وقد يبدو أن القياس إليه والاعتبار به قريب ، ولكننا نحن نأخذ من هذا الأصل مباشرة الذى حجبنا عنه ، الفقه الإسلامى الخالف الذى – كما ذكرتُ – أخذ هذا الأنموذج الحى المتصل بالواقع وبسطه على مائدة النظر ورتبه ترتيباً جديداً يناسب النظر ولا يناسب الواقع .

استيقاظ أقدار التدين :

س : ليس من شك فى أن المجتمع الإسلامى الأول الذى يمثل عملية الانتقال هو المقياس فى مرحلة مماثلة أو مشابهة ، لأن نهوض أى مجتمع مرهون بتوافر شروط ميلاده الأولى .. لكن نحن مختلفون – كما قدمت – عن المجتمع الأول بأن التدرج فى التشريع والتطبيق كان فى المجتمع الأول مترافقاً .

الترابى : لعل ذلك مما ييسر أمرنا .. فقد كانوا يتقدمون على طريق الإسلام إيماناً وتوكلا وينتظرون الوحى من الله سبحانه وتعالى ثم يلتزمون ، فكان الأمر يقتضيهم درجة من الإيمان بالغيب .. أما نحن اليوم فوراءنا عبرة التاريخ كله تهدينا ، ووراءنا الصورة الكاملة للقبلة الإسلامية التى نستهدفها .. فنحن إذ نخطو خطوة على الطريق ، نتصور ما يتلوها من خطوات ، إن لم يتيسر لنا أن نتمثل ذلك فى واقعنا .

ثم إنهم بدؤوا من جاهلية مطلقة فى أمة أمية كانت محرومة من التراث الكتابى العام الذى يمهد لبعض المفهومات الدينية .. أما نحن ، فنقوم بحمد الله فى مجتمع ليس بكامله جاهلى ، قد تكون فيه جاهليات وفيه ظلم ، ولكنا نحذر أن نسميه مجتمعاً جاهلياً لأننا بذلك نظلمه .. ومازال فى كوامن فطرته أقدار من التدين ، ولذلك – بالتذكير القليل – تستيقظ كل هذه الأقدار وتكاد تُحدث معجزة فى دفع التحول .. وتُشاهد أحياناً فى الفرد الواحد ، كيف يحدث الانقلاب فيه من حادث يطرأ عليه أو موقف يصدمه فيذكره بالله ، فيحدث انقلاب هائل فى حياته كلها .. ويحدث مثل ذلك على صعيد المجتمع .

وإننا نشاهد اليوم ، وهذه أيضا مشاهد انتقال لايكاد الإنسان يصدقها ، كيف تتم المعجزات الحقيقية فى الانتقال ! وكيف نتصور المعضلة الكبيرة ، التى نُقدر أنها ستكلفنا التكاليف ، كيف ييسرها الله سبحانه وتعالى ، إذ يستيقظ الإيمان فيتصل بقوة الله سبحانه وتعالى ذى الحول والطول .. إن الله هو الموفق وبيده تصريف الخلق والأمر .

خطورة الإغراق فى المثالية :

... وصور الانتقال بالرغم مما يعتريها من مشكلات ومعضلات ، إلا إنه كذلك تعتريها فتوح تبشر الإنسان وتعينه على مصادمة هذه المشكلات .. وقد كان – بحمد الله – طرحنا للإسلام فى السودان ،

طرحاً واقعياً موصولا بالواقع ولذلك قرَّبنا مُثُل الإسلام للواقع .. وقدمنا صورة للمسلم – ليس المسلم الملائكى الذى هو على قمة الطاعات دائماً – ولكن المسلم البشرى الذى يخطىء ولكنه إن كان خطاًّء فهو توَّاب أيضا .. كما قدمنا صورة للحاكم المسلم الذى لاينبغى أن يكون على أعلى مثال شهده التاريخ الإسلامى ، بل على صورة ذلك المثال كما نقله إلينا المؤرخون الذين أرادوا – لأغراض تربوية – أن يُركزوا ، بصورة أولئك الحكام الأفذاذ ، على الإيجاب المطلق فى سيرتهم وتناسوا غير ذلك حتى يُربونا بالتعلق بالصورة المثالية .

الحاجة لإعادة كتابة التاريخ والفقه :

س : يُخشى أن يؤدى الكلام والمبالغة فى المثالية إلى الوقوع فى الوجه الآخر للقضية وهو : التأكيد على استحالة التطبيق والمساهمة السلبية بإبعاد الناس عن الإسلام .. .

الترابى : صحيح ، لأنه يباعد بين تلك الصور .. ولكن هذا كان اجتهاداً تربوياً من بعض المؤرخين : أن يرسموا صورة زاهية جدا للتاريخ ، وأن يذكروا محاسن الموتى ، وذلك ليحملوا الناس على الصعود .

ولكن من يلاحظ صور القصص القرآنى يجد أنه يقص قصة الحياة كلها لأن التدين هو الانتقال من الخطيئة إلى المتاب ومن القصور إلى التكامل .

وليس التدين هو بلوغ هذه الحالة المثالية والبقاء عليها ، فهذا مما لايتيسر بشريا .. ولكن التدين هو هذه الحركة وهذا الانتقال .. والانتقال مرحلة لا تنتهى .. فمهما بلغ المرء من الطاعة يراوده الشيطان ، لأن الشيطان مخلَّد .. وتراوده الذنوب وتنتابه الذنوب ، فكأنه ينحط ثم يقوم ويسقط ثم ينهض ، وهكذا دائماً .. وهذه المعاناة هى لبّ التدين .. ويُجدينا – فى واقع الأمر – أن نعيد كتابة تاريخنا وكتابة فقهنا من جديد حتى يكون فقهاً يُهيىء أصحابه ، وتاريخاً يكيف قارئه ، لأن يحققه فى الواقع .

س : كثرة الكلام عن المثاليات ، من خلال واقع الضعف البشرى ، كأنه مُيئس وقد يُعطى نتيجة تربوية عكسية لما أراد له أصحابه .. ويكون مساهمة سلبية ومنافذ يخترق منها الأعداء الصفَّ الإسلامى بدعوى أن الإسلام مثالى لا يمكن أن يخالفه التطبيق .

الترابى : تماماً ... إن هذا القرآن هو كيمياء انصبَّت على واحد من أحط صور الواقع البشرى .. وكانت معجزة الدين أنه انتقل بواقع منحط جداً .. وقدَّر الله أن يبعث هذه الرسالة لا فى البلاد التى تهيأت بالحضارة ولا فى البلاد التى تهيأت بالثقافة الكتابية لها ، ولكن فى واقع بعيد جداً .. وبالرغم من ذلك استطاعت هذه الكيمياء أن تحول هذا الواقع إلى مثال أصبح قدوة فى تاريخنا .

ضمانات الاستمرار :

س : بعد أن دخلت التجربة السودانية مرحلة التطبيق العملى ما هى – فى نظركم – ضمانات الاستمرار وتحديد الموقع المرحلى بالضبط من خلال الصورة الدولية المعقدة ؟ ذلك أن المعادلة الدولية قد تتغير والمعطيات ، من حولنا ، قد تتغير أيضاً ، خاصة عندما تستشعر بعض الدول التى لا ترى من التجربة الآن إلّا مواجهة الشيوعية فى أفريقيا ، جدية التحول الإسلامى .

الترابى : إن هدى القرآن يدلنا على أن المعَوَّل فى حراسة الكسب الدينى هو على قوة إيمان المؤمنين ووحدة صفهم .. وأن الخلل والفشل وذهاب الريح يأتيهم من خلال العيوب الداخلية ، ومهما اجتمع عليهم الناس أو جمعوا لهم ، فإن ذلك قد لا يضرهم وقد لا ينقلبون منه إلا بخير زائد .. ولذلك ، نحاول أولا أن نوسع رقع تطبيق الإسلام فى الحياة حتى لا يكون تطبيق الإسلام محاصرا فى زاوية واحدة يمكن أن يُقضى عليها بيسر ، وحتى لا يظل ما يترتب عنها من بعث لتدين الناس محدوداً بحدودها .

فحاولنا أن نوسع رقعة التطبيق الإسلامى فى مجالات الاقتصاد المختلفة ومجالات السياسة والمعاملات ، بل فى مجالات الحياة الشخصية بالسياسات التربوية المناسبة . وبذلك نضمن أننا حافظنا على قدر أوسع من الإيمان يُفجِّر طاقات أكبر عند الشعب .. ونُعِدُّه بذلك –

بهذه الطاقات الواسعة المتفجرة – ليجد كل مواطن ، أيا كان موقعه ، مجالا للدخول فى هذه النهضة والثورة الواسعة ، رياضياً كان أو فناناً ، سياسياً كان أو تاجراً ، أمياً كان أو مثقفاً .

الولاء الجديد :

... ثم إننا نريد أن نولِّد من هذه التشريعات ، إيمانا بواقع الأمر ، وهذا هو الجانب الذى لا يدركه كثير من الناس . إذ يحسب الناس أننا قننا القوانين لتنضبط بها مؤسسات الدولة ومحاكمها وشرطتها وموظفوها ، ولكن الذى وقع فى نفوس الناس أكبر بكثير من أثرها المباشر فى تطبيق حدود الشرع أو أحكام المعاملات : زاد إيمان الناس زيادة واسعة ، بل إنها أصبحت الآن هى مركز ولاء جديد للمجتمع .. فقد ظل المجتمع السودانى لعهود طويلة مقسماً إلى طوائف وأشكال ورثها من تاريخه ، ولكنه الآن يموج بحركة ستبدل علاقاته الاجتماعية وخارطة الولاء السياسى فيه ، وتتجمع منه أقدار هائلة نحو مركز ولاء جديد ، وذلك يعنى أن الصف الواعى بالإسلام ، الملتزم بالإسلام ، بتحديات الإسلام المعاصرة لا بالمنكفئة على التاريخ ، سيصبح بإذن الله صفاً كثيفاً مرصوصاً .

وحتى مراكز القوة فى هذا المجتمع والتى ربَّاها الاستعمار من قبل وكيفها لتكون هى حيثيات للنظام العلمانى الذى فشل فى البيئة الإسلامية وخُشى أن تحاصره هذه البيئة وأن تمتصه ، كالقوات المسلحة والقضاء والخدمة المدنية والجامعات ، هذه المؤسسات زرعها

الاستعمار وقوّاها ومتّن بناءها وجعلها أمينة على حراسة تراثه ، وظلت عهداً ما ، كلما تطلع الشعب وماج بتطلعات نحو الإسلام ، قمعته هى ، إن لم يكن بقوتها المادية فبقوة قهرها الأدبية .

هذه المواقع ، بإذن الله ، من أُولى المواقع التى صوَّبنا إليها الانتقال نحو الإسلام .. فالجيش يتحول بتوجهاته القديمة وتصوره القديم لوظيفته إلى توجهات جديدة وإلى تصور دينى لدوره فى الحياة ، ويتسع فيه الالتزام الإسلامى وتتلاشى تقاليد الوجود القديم .. وكذلك مراكز الثقافة الإسلامية التى ماتزال تحمل بعض أشكال وأسماء ترمز للتوجه القديم ، إلا أن مضمونها قد دخله الإسلام ووقع فيها انقلاب .

فالجامعات انقلبت من قواعدها وسيخر السقف من بعد ذلك إن شاء الله .. وكذلك القضاء الذى كان واحداً من أكبر مؤسسات العلمانية فى البلاد ، وهو لمَّا خوطب بالقوانين الإسلامية تثاقل شيئاً ما من أن يتحول عن مألوفه إلى هذه القوانين الغربية ، تُتخذ الآن تدابير للتحول به تحولا يهيئه لاستقبال هذا الجديد وحمله بإذن الله .. وإن يسر الله لنا فسحة من الوقت ، ستقوم فى السودان ، إن شاء الله قوة شعبية ومؤسسية تمتّن الإسلام .

مشكلة الجنوب :

وهناك أمر آخر نريد أن نتوجه إليه وهو أنَّ جنوب السودان كان ثغرة واسعة هيأها الاستعمار كذلك بمحاصرته لها وبتكييفه لها ثقافياً

بما يجانب الوجهة الثقافية السودانية ، بأن تكون دائماً سلباً على إسلام السودان وخصماً من التدين .. وتتوجه الآن – كذلك – طاقات من الدعوة الإسلامية ومن العمل الإسلامى الاجتماعى ومن الجدالى والحوارى مع غير المسلمين ، حتى نحيط بهذا الكيان ونجعله للإسلام لا خصماً له ، بإذن الله .

يضاف إلى ما سبق أن أشرت إليه من أننا نصوِّب طاقات التدين بأقدار هائلة نحو الاقتصاد حتى تكون لنا من قوة الاقتصاد بما يُمكن أن نُقاوم به ضغوط الباطل .

سنة المدافعة ومواجهة التحديات :

... وبهذا الإعداد نستعد كذلك للتحديات .. نحن نعلم أن الدين لا يمكن أن يقوم – اليوم – فى بقعة معزولة ولا يمكن أن نبنى حائطاً حديدياً نحمى به ناشئة الإسلام فى السودان حتى يقوى عودهم ؛ لأننا مضطرون أن نقيم الإسلام فى الشمس وفى الأعاصير وفى قلب الدفوع الدولية .

ونعلم أنه كلما تبلور الواقع الإسلامى وبدت أصالته وبعض آثاره كلما اشتد الفزع من مستقبله .. وكلما نشط الحق نشط الباطل فى وجهه أيضاً .. وتلك سنة من سنن الله الذى قدَّر أن يقابل بين الحق والباطل ، ابتلاءً لعباده .

ونحاول فى صلاتنا العالمية أن نبسط بالحسنى وأن نراقب مَنْ حولنا من العالم ، مسلمين وغير مسلمين ، ونُبَصِّر بما يجرى فى السودان

حتى لا يفزع بعض المسلمين من هذا التحول الذى قد تترتب عليه تطورات مفزعة لاستقرار الأوضاع والمصالح الراهنة .. وحتى لايُفرط الغرب كذلك فى فزعه ، فإننا نحاول أن نقدم لهم صورة بإيجابيات الإسلام لهم – لأن الإسلام جاء لكل الناس ولم يأت للمسلمين وحدهم – وما فيه من خير للبشرية ومن عطاء لحضارتها .

ونحاول بالجمع الذى نجمعه وبالعدة التى نعدها أن نرهب عدو الله كذلك من أن تحدثه نفسه بأن يستهين بشأن الإسلام وأن يكيد له ؛ حتى يعلم أنه إن حاول الكيد سيكاد له ، وإن مدَّ يده ستقطع بإذن الله .

ذلك بعض من جملة من السياسة الخارجية الجديدة ، وهذا وجه من وجوه الدعوة إلى الإسلام لم نجرِّب منها إلاَّ قليلاً لأن الحركات الإسلامية كانت حركات منكفئة فى بطن المجتمع وقليلا ما كانت تتصل بالعالم الخارجى أو تضطر حتى إلى تصور مواقف إسلامية فيه .

دخول السياسة الخارجية فى الدين :

س : ولذلك ستفاجأ بكثير من المواقف لأنها تبدو جديدة عليها .

الترابى : نعم .. لقد دخلت السياسة الخارجية كما دخلت كل السياسة اليوم فى الدين ، دخولا واسعاً وأصبحت لنا مصالح الآن فى موقف كل قوة عظمى أو صغرى لأن العالم كله يموج بالتفاعلات ولا تقوم دولة بشأنها ، قوية كانت أو ضعيفة ، فكما تحتاج الضعيفة

للقوية تحتاج القوية لسوق الضعيفة ولتابعيتها ..وهذا وجه جديد من وجوه الابتلاء ووجوه الفقه سنحاول أن نقتحمه بإذن الله ، بزاد محدود من الاجتهاد ؛ حتى نحمى ناشئة الإسلام .. ولا نقول نحميها وحسب لأن الدفاع ليس إلا مرحلة ، والقصد فى نهاية الأمر أن يمتد هدى الإسلام وأن ينتشر وألاّ نكون مستقلين عن الناس ولكن أساتذة هداة للناس .

ونعلم أن الأنموذج السودانى ، بسعة مداه ، سيكون ملفتاً للنظر وسيصوب الناس إليه النظر وقد يكون مبشراً أو يكون منفراً .. ولا نريد أن نصدّ عن سبيل الله ولكن نريد أن نهدى إلى سبيل الله .. ونستشعر لذلك قدراً هائلا من المسئولية ، عن بلادنا وعن العالم أجمع .. ذلك العالم الذى ينظر إلينا اليوم ، لا بعين موضوعية مجردة صادقة ولكن بعين فيها كثير من الارتياب وبقلوب فيها كثير من التحامل على الإسلام .. ونحن مضطرون فى وجه ذلك كله أن ننفذ بصورة إسلامية مُشرقة بما يجرى فى السودان .

كنا قد عرضنا فى القسم الأول من حوارنا مع الدكتور حسن الترابى حول « فقه المرحلة والانتقال من المبادىء إلى البرامج » لأهمية معطيات التجربة الميدانية فى السودان على مناهج ووسائل وتصورات العاملين فى الحقل الإسلامى ، وكيف أن تجدد الابتلاء سنّة ماضية ، وضرورة الانتقال من المبادىء إلى البرامج ، وعملية التدرج فى التطبيق والتعامل مع السنن الجارية وعدم انتظار المعجزات والسنن الخارقة ، واستيقاظ أقدار التدين ، وخطورة الإغراق فى المثالية ، وضمانات الاستمرار ، وسنن المدافعة ومواجهة التحديات .

مؤسسات شعبية للرقابة العامة :

س : هل من ضمانات الاستمرار ، التفكير بإقامة مؤسسات شعبية للرقابة العامة أو ما يمكن أن يسمى بالمصطلح الإسلامى : الأمر بالمعروف والنهى المنكر .. – ليس من خلال الصورة المترسبة فى أذهان الناس لبعض صور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تأخذ جانباً من الحياة وتهمل أو تنصرف عن الجوانب الأخرى – وذلك حتى تشكل هذه المؤسسات بعض الضمانات على المستوى الشعبى وتكون مُعينة وليست بديلة ولا مقابلة للمؤسسات الرسمية ، حتى نتفادى مخاطر الازدواجية وما يمكن أن يكون من صراعات خفية أو معلنة ؟

الترابى : لما لم يكن المشروع الإسلامى تنزيلا من تلقاء الدولة وحدها وإنما كان دعوة لرواد من الدعاة اتسعت واتخذت بعدا جماهيرياً فأصبحت توجهاً شعبيا تجاوبت معه الحكومة ، فقد كانت التشريعات الإسلامية تكاد تتوزع لتستجيب لحاجات هؤلاء وأولئك .. فإذا كانت بعض التشريعات مما يلى الحكومة ومحاكمها ، فقد كان من أول القوانين التى صدرت قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو لا يضبط – بالطبع – الشعب لأن يكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مرهوناً بإشارة من الحكومة ، ولكن ليتيح للشعب أُطراً من التنظيم حتى يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منظماً وفعالاً فى المجتمع .

ويؤسس هذا القانون على إيلاء المبادرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للشعب فى تنظيماته المختلفة وللشعب أفراداً .. ولعلَّ ضالة البناء السياسى والحكومى الإسلامى فى تاريخ السودان قد اضطر السودانيين قديماً من أن يقوموا - شعباً - بكثير من مهمات العمل الإسلامى وأداء كثير من الوظائف التى يكلها مسلمون فى أماكن أخرى لحكومة يثقون بها وتؤدى دورها بفعالية .

إن غياب الدولة الإسلامية لعهود طويلة فى السودان اضطر أهل السودان لأن يقوموا بخاصَّة أمرهم . ولذلك فإن قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يبنى على تقاليد واسعة فى التنظيم الاجتماعى وفي الإيجابية الاجتماعية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وليس من شك فى أن المجتمع الإسلامى الأمثل - ولا أقول المثالى - هو المجتمع الذى يقوم فيه الناس بأغلب شؤونهم ويتضاءل فيه دور السلطان لأضيق الحدود ، لأن السلطان يستعمل أدوات القهر والأحكام الظاهرية ، أما الدين - بجوهره - فهو مواقف للوجدان وطاعة لله سبحانه وتعالى يجزى عليها الإنسان يوم القيامة .. وكلما تديَّن المجتمع وأفراده ، من تلقاء أنفسهم دون أن يرهبهم سلطان ولكن رهبة لله سبحانه وتعالى ورغبة فيما عنده ، يقومون بأغلب وظائف الدين .

محاصرة الشر والحدُّ من آثاره :

... لقد شهدنا مراحل من تاريخنا الإسلامى السالف ، أن الحكومة قامت فى بعضها ببعض الصور غير الشرعية ، إلاّ أن الفقهاء حاصروها حتى لا ينشروا هذا الشر على المجتمع ، وخاطبوا المجتمع رأسا ليقوم بوظائف التعليم ووظائف العلاج والتكافل الاجتماعى وعون الضعفاء احتساباً .. ولذلك قام المجتمع بأغلب الوظائف التى هى فى مجتمعات أخرى متروكة للدولة .

ونحن الآن فى السودان ، من خلال قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن خلال البناء على هذا التقليد الحميد فى التاريخ الإسلامى وفى الواقع السودانى ، نريد أن يتكامل الجهد الشعبى والجهد الحكومى .. وبالطبع نظراً لطول غياب الحكومة عن الواقع ، تعطلت بعض الوظائف التى لا يمكن أن تُؤدى إلا من خلال السلطان لأنها تقتضى دقة فى التنظيم لا تناسبها عفوية التنظيم الاجتماعى ، كما تقتضى كذلك بسطا لقوة الإسلام المادية بما لا يُتاح من خلال العمل الاجتماعى .. ولذلك ، أحسب أننا فى دور الانتقال سنكِل إلى الدولة أن تقود المجتمع وأن تؤدى كثيراً من الوظائف ، ولكن تؤديها بوجه يُربى الشعب بمقاصدها حتى يمكن – فى مرحلة متقدمة إن شاء الله – أن نولد فقها جديداً ، يوزع وظائف الحياة توزيعاً مختلفاً .. ويمكن للسلطان أن يتقلص شيئاً ما لينتهى عند حدود الضرورة الشرعية ويقوم المجتمع عفواً ، من تلقاء دوافع الدين ، بعامة أمره .

قصور الفقه السياسى :

س : من المعروف أن الفقه السياسى قد توقف عن النمو من زمن بعيد ، حينما انفصل السلطان عن القرآن ، بينما استبحر واستمر النمو فى الفقه التشريعى والعبادى ، الأمر الذى قد يجعل المكتبة الفقهية الإسلامية – فى مجال الفقه السياسى – تبدو عاجزة فى بعض الأحيان عن مد التجربة الإسلامية بقدر كاف من الفكر الفقهى ييسر أمامها رؤى ومواقع جديدة مما يتطلب اجتهاداً ضمن إطار مقاصد الشريعة وقواعدها العامة .. فكيف يمكن معالجة ذلك ، خاصة وأن الدولة الحديثة اضطلعت بوظائف جديدة وحققت آفاقاً بعيدة ومعقدة على المستوى الداخلى وفى مستوى العلاقات الدولية ؟

الترابى : كان قدر المسلمين فى تاريخهم أن يكون أول ما عطَّلوا من التدين وأكبر ما قصروا فيه هو جانب السياسة .. فتنة الصراع السياسى أحاطت بهم ولم يقوموا بقدر من التدين يكافىء قدر هذه الفتنة التى تعاظمت بانتشار الإسلام السريع ودخول طوائف قوى سياسية منفعلة بتاريخ السياسة اللادينية الجاهلية .. ولذلك تبدل نظام الخلافة وأصبح السلطان فى كثير من جوانبه لا يقوم على نيات التدين ... وبَعُد الواقع السياسى عن العقيدة شيئاً ما – ولا أقول خرج منها تماماً لأن معانى الدين بقيت تظلل الدولة الإسلامية إلى عهد قريب حتى مرقت عمداً وسفوراً من بعد سقوط الخلافة العثمانية – ومع انحسار الواقع ينحسر الفقه لأن العلم والعمل متلازمان ، فإذا اتسع

العمل اتسع معه العلم وإذا اتسع العلم اتسع معه العمل وإذا انحسر العمل كذلك انحسر معه العلم ، فالفقهاء زهدوا فيما عند الحكام ، والحكام أدبروا عما عند الفقهاء فى مجال السياسة خاصة ، ولذلك تضاءل الرصيد الفقهى الذى نجده فى تراثنا .

وتعقدت علينا هذه المشكلة فى السودان ، لأن السودان لم يكن من البلاد التى فُتحت وتأسست فيها نظم للإسلام ، ولذلك تبقى بقية من بعض صور التطبيق الإسلامى القديمة يمكن أن تُكَيَّف وتُطَوَّرَ ولم يمارس السودان الدولة الإسلامية بمعناها الواضح السافر إلا لماماً .

وبالرغم من أننا حاولنا – من تجربة الغرب الكثيفة فى مجال السياسة – أن نُقايس ، كما حاول بعض المفكرين المسلمين أن يقدروا كيف تكون الأحكام الإسلامية فى واقع حضرى كثيف تقوم فيه سلطة واسعة الوجود ، إلَّا أن هذه المبادرات الفقهية التى ظهرت أخيراً ، بين يدى تحديات الواقع ، لا تكاد تغنى شيئاً .. وإن كان لنا كسب من الفقه الشعائرى ومن فقه الأحكام فى الأحوال الشخصية بل فى المعاملات المدنية ، لا بأس به – وإن كان يحتاج إلى استكمال الكثير – إلَّا أنه إذا قسنا إليه رصيدنا من الفقه السياسى ألفيناه ضئيلا جداً فى واقع الأمر .

معادلات جديدة :

س : لا شك ، أن وظائف الدولة تبدلت وعلاقاتها تعقدت . وانتصبت مشكلات للمعادلة بين الحاكم والمحكوم ، بين

استقرار الحكم وقوته ، لاسيما أنه حكم تُناط به مهمات انتقال وتحول إسلامى، لا فقط تحول إلى التزام معايير شكلية، ولكن تحرك بالمجتمع كله نحو قوة اقتصادية وسياسية جديدة، وأنه يجابه انقضاضاً من العالم كله على التجربة الإسلامية فلذلك لابد من أن تتقوى الحكومة .. كيف نعادل بين هذه المعادلة وبين معادلة الحرية والشورى داخل المسلم ؟...

كيف نعادل بين حق المسلم فى أن يرى رأيه وأن لا تحده دون رأيه عصبية ، وبين ضرورة تنظيم الرأى العام فى توجهات حتى يسهل الحوار بين توجهات معدودة ولا يختلط الرأى هكذا ؟ هل يمكن أن نتيح مجال التنظيم حتى ينتهى إلى أحزاب وإلى عصبية جديدة تمزق وحدة الأمة ، أم نخشى من ذلك ولا يتأتى لنا - إن بسطنا الحرية - إلا ارتباك وفوضى واسعة ؟

الترابى : إنها قضية معقدة ! ويزيدها تعقيداً أنها تطرح فى ظروف انتقال .. والشعب المسلم غير مهيأ وماتزال فيه عصبيات ، ولو أطلقت له الحرية فإنه لا ينطلق بالإسلام وإنما ينطلق بكثير مما ورثه من قبل .. وبذلك تتعقد علينا هذه المشكلة بأنها تطرح فى مرحلة انتقال وصور الحكم - حتى التى نحاول أن نتمثلها - تفترض حاكماً ومحكوماً وإماما ومأموما على ذاك القدر من الوعى بالدين والانفعال به والعلم به كذلك .. وحتى الكتّاب يصورونها هكذا

ويتوهمون أن كل المجتمع يقوم بحد أدنى من الإيمان ومن العلم ومن المجاهدة بالإسلام ولذلك يرتبون الصور على هذا الاستصحاب ، ولكن الاستصحاب يتخلف فى مراحل الانتقال .. وينسون – كما قدرت – مدخلات العوامل الخارجية ؛ لأن ثمة قوى تحيط بالعالم الإسلامى وتتخلله وتكاد تؤثر على اقتصاده وعلى ثقافته وتقهره بالدعاية .

ولذلك إذا أُطلقت الحرية استغلت تلك الحرية لتدخل منها مُدخلات غريبة على الدين ، وإذا توجهت الحرية نحو الإسلام وُئِدت تلك الحرية وأُجهضت وفُرض على المسلمين نظام قهرى حتى لا يتمهد لهم طريق الإسلام ؛ بالرغم من أن الغرب يتشدق بالديموقراطية ، فلذلك يتعامل المرء مع شعب غير كامل الوعى والتدين ، ويتعامل مع قوة تكاد تكون فى فعلها فى المسرح الداخلى أقوى من قوة الشعب مجتمعة ، وقوة أقوى من أحزابنا وطوائفنا وتجمعاتنا التاريخية فى أثرها على الحكومة الواحدة .

من جور الأديان إلى عدل الإسلام :

س : ولكن لابد من التحقق بقدر من الحرية كبير يميز التوجه الإسلامى عن الأنماط الأخرى التى أهدرت إنسانية الإنسان تحت عناوين شتى ومسوّغات مضحكة من منطلق الاستبداد السياسى الموجود فى كثير من بلدان العالم العربى والإسلامى حتى الذى ينسج على منوال أوروبا ، يحاول أن يتهم

الشعوب بوعيها وبقدرتها على التعامل مع جو الحرية ولذلك يأخذها بلون من الاستبداد السياسى .. ولا ندرى : كيف يمكن ، إذا لم تكن مكتملة الوعى ، أن يكتمل وعيها بالظلم والاستبداد السياسى ؟ .. فقد يكون المطلوب أن تتحقق التجربة بقدرٍ من الحرية مميز ؛ ذلك أن التوجه يعنى – أول ما يعنى – الخروج من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وإلا افتقد التوجه مقومات وجوده .

الترابى : إن الغرب الذى ينعى علينا نظمنا التى يتهمها – استبداداً – يفعل ذلك ليكيد لصورة المسلمين . فإذا رأى توجهاً عند المسلمين للحرية والحرية عادة تفتح الباب للشعب والشعب منفعل بالدين ، وأد تلك الحرية بفعله حتى تظل التهمة متعلقة بنا وحتى ينسد الباب أصلا للإسلام ، ولكن صحيح ما تقول : إنه لابد من توفير قدر واسع من الحرية لأنه لا يمكن للتدين أن ينمو إلا فى مناخ الحرية .. وماقام نبى إلا دعا أن يعمل كل على شاكلته ويعمل كل على مكانه وأن لا يلزم الواحد أخاه والا يكرهه على الدين لأن التدين هو تحرر من واقع القهر والسلطان ، وحتى يتعبد الإنسان لله سبحانه وتعالى .. فالحرية لأزمة من لوازم التوحيد وضرورة من ضرورات تنمية التدين ولابد من أن نهيىء لها المسلمين ؛ لأن المسلمين لم يتهيأوا لهذا القدر من الحرية .. فقد عهدوا فى تاريخهم كله – ولا أقول فى البناء السياسى وحده بل فى البناء الاجتماعى أيضا – قدراً كثيراً من التعبد والتذلل للسلطان البشرية .. فكان الفقيه دائماً يلقى بالفتوى

... ـافش أبداً ، ولا دور للعامى إلا أن يتلقى وينفذ دون أن يداور ... ر .. وكذلك فى طوائفنا الدينية تجد الأتباع كأنهم لا شيء ... الدين كله وأصبحوا يتحركون بإشارة .. فنحن لنا تقاليد ... عية وفكرية وسياسية تكرس بعض الممارسات المخالفة لقيمنا .

الفزع من الحرية عطل الحياة الإسلامية :

.... ثم إن المسلمين يفزعون جداً من الحرية حتى الذين يدعون إلى فتح باب الاجتهاد مثلا ، وإذا جئت برأى جديد – وهو بالطبع نتيجة لأزمة للحرية – قامت الدنيا كلها : من أين أتيت بهذا ؟ ومن أين نقلته ؟ ولم نسمع بهذا فى آبائنا الأولين ؟! .. فكثير من المسلمين يخافون من الحرية ويرون أن للدين فى كل فرعية دقيقة من فروع الحياة رأياً واحداً ننتظره من أفواه العلماء وننبش التراث حتى نقف عليه .

والحرية إذا اتسعت ، اتسعت الآراء وازدهرت وتكاثرت ، وإن كان فى الدين يقينيّات وقواطع يجمع عليها الناس فستقوم حولها آراء واختلافات وظنيّات واسعة .. والله سبحانه وتعالى ابتلانا بهذا القدر من الظنيّات وهو الذى قدّر أن تكون واسعة بهذا المدى .. ولا يمكن أن نعطل هذا الابتلاء بأن نرد الدين كله إلى قوالب جامدة .. فلابد من إتاحه الحرية حتى يألفها المسلمون وألاّ يفزعوا من الخلاف مثلا ويحسبوا كل خلاف فتنة ، وألاّ يقدروا أن كل شيء فى الدين قطعى ، فإذا اتسعت أمامهم الطرق تبلّدوا واحتاروا وارتبكو ارتباكا واسعا .

وسنحاول إن شاء الله فى الأنموذج السودانى بالرغم من التحديات المحيطة به وبالرغم من أن هذا المجتمع الذى نقيم فيه الدين اليوم بأتم وجوهه ، مجتمع معقد مركب متباين له حدود واسعة وعلاقات واسعة بالمجتمعات الأخرى ، وتلك السعة فيه تولّد كثافة مما تموج به الحياة السودانية ، بالرغم من كل ذلك واستعانة بالله سبحانه وتعالى ، سنحاول أن نوسع الحرية ؛ لأن التزام الإسلام ذاته يهيىء لنا قدراً من الانضباط ومن الاستقرار الذى يحول دون الفوضى التى يمكن أن تتحقق من قضية الحرية ؛ ولأننا بالأمس كنا نخاف إذا فتحنا الباب من أن تُستقطب البلاد والأحزاب ويتشتت ولاؤها للخارج وتتمزق أشلاءً ويضيع الكيان الذى نعده لمستقبل الإسلام .. لكن الآن ، وبعد هذا الانفعال الواسع بالدين ، اكتشفنا وحدة جديدة .. وهذه التحديات ذاتها تضطرنا إلى أن نضم هذا الصف . ويمكن فى هذا المجال أن يتاح لنا أن نتسع فى الحرية السياسية بقدر واسع إن شاء الله .

الحرية مؤشر التحول الإسلامى :

س : هذا ما نتمنى أن يتحقق لأن المؤشر الصحيح للتحول الإسلامى سوف يكون رهين الحرية السياسية ؛ لأنه – كما تعلمون – سادت فى التاريخ الإسلامى مسوغات ومبررات لقضايا الاستبداد السياسى وتكلموا بالمستبد العادل ، وغير ذلك .. فالأمر عبارة عن صناعة مسوغات للظلم فى قوالب أخرى ، تحت مظلة أو عناوين إسلامية .

الترابى : لعلك تدرك أنه فى أيام الاستبداد السياسى يُزيَّن للناس أن يبحثوا عن مسوغاته ، وأن يؤولوا الآيات والأحاديث والمعانى الفقهية لمصلحة المناخ الذى يعيشون فيه وأن يبالغوا من الخوف من الفتنة والفرقة ومن الظنيات فى الدين عموماً .

بينما الخوف من بقاء الأخطاء وبقاء الانحراف وحراسة الظلم أشد .

الدين كله ثقة بالإنسان لإتاحة حرية له حتى يتحرر من أسر الطبيعة والمجتمع وأسر الحكام ليخلص التعبد لله سبحانه وتعالى .. وهذا هو جوهر التدين الذى لابد أن يتمثل فى حركتنا الفقهية وفى تنظيم الأسرة والجماعات الإسلامية وفى تنظيم دولتنا أيضاً .. فهذه قيمة أكبر بكثير من الأحكام الشرعية الكثيرة التى تؤسس معنى الشورى ومعنى المناصحة ومعنى عدم استعباد الناس .

ولكن مع الأسف بقيت فى الكتب بالنسبة للحياة الإسلامية لفترة طويلة من الزمن ، والصف الإسلامى كان عاجزاً عن احتمالها أو لا يرغب فى ممارستها بسبب بعض التخوفات أو الأوهام التى يمكن أن تدخل عليها .

التوجه صوب الإسلام مطلب جماهير الأمة :

س : لا شك بأن التوجه الإسلامى كما بدأ فى السودان وكما هو واقع المسلمين جميعاً بعد رحلة الضنك التى عاناها من

التطبيقات غير الإسلامية وما إلى ذلك ، مطلب جماهيرى وإن كان الفضل فى تجديد ذاكرة الجماهير المسلمة تجاه القضية الإسلامية وتكوين الوعى الجماهيرى يعود لرواد يمثلون سرايا الاستطلاع للواقع والتحديات واكتشاف أمراض المجتمع والتبصير بها .

فكيف يمكن للعاملين للإسلام أن يضمنوا الاستمرار ، بالفاعلية الجماهيرية نفسها ، فى حمل أهداف الأمة وعدم الرجوع إلى مواقع خاصة أو تشكيل طائفيات أو طبقة خاصة تنسب إليها هذه المكاسب فيخدعها ذلك عن أداء وظيفتها الرسمية فتنتقل القضية من إطار القيم والأفكار لتحبس فى إطار الطوائف والأشخاص ؟

الترابى : من أخطر الابتلاءات التاريخية التى تجابه الحركات هى أن تتحول من حيث لا تدرى من دعوة منفتحة مقبلة على الناس ، تريد أن تستوعبهم للإسلام ولا تنحصر فى ذات أمرها ولاتعكف أو تطوِّف حول نفسها ، إلى طائفة مغلقة تزدهى بتاريخها وبرجالها وتريد أن تحتكر الفضل والعلم والكسب كله .

والنظر فى عبرة تاريخ كثير من الحركات التى بدأت ثم – من حيث لا تدرى – تحولت هذا التحول المؤسف ، وعظنا بعض الشيء هنا فى السودان .. وظلت حركة الإسلام فيه تحاول أن تنتبه دائماً إلى هذه العلل التى تسرى إليها من هنا وهناك .. فهى لم تقم ابداً يوماً من

الأيام باسمها المتميز ، لأن الأسم ذاته محور للتعلق الطائفى ، وإنما تحاول دائما أن تدخل فى جبهة واسعة من جمهور الإسلام ، وتركز على القضية التى يدعى إليها إلا إلى الداعين إليها وتركز على الرسالة دون الرسول .. والحمد لله الذى هيأ لهذا المنهج المتفاعل مع المجتمع ، الذى لا يجدِّد فقط وظائف لجماعة صغيرة مهما كانت صفوة فى الإيمان ولكنه يعبىء طاقات الإيمان فى مجتمع واسع .. وأحسب أن هذه الفاعلية الاجتماعية الواسعة هى التى يسرت للسودان توجهه ، فلم يكن أكثر البلاد تأهيلا من حيث استقلاله الفكرى أو السياسى أو حتى من حيث عراقة تراثه الإسلامى .. ولكن الاتساع بتعبئة الطاقة الإسلامية الكامنة فى الشعب كما يسرت للإمام المهدى قبل مائة عام فى السودان أن يعبىء أهل السودان السذج حول قضايا الدين وأن يصدم الاستعمار ويكسره فى وقت كان الاستعمار فيه أقوى ما كان - كان فى عنفوانه وشبابه وكان يبسط سلطته كذلك - يسرت للسودان الآن ، رغم كل التحديات التى تحيط به .. وماذلك إلا بفضل الطاقة الشعبية الواسعة وبفضل الله من قبل ذلك ؛ لأن ملايين من المسلمين يدعون إلى الله ويجاهدون فى سبيله ، أقرب إلى الله من فئة قليلة مهما كان إيمانها ... إن توفيق الله سبحانه وتعالى يتجلى هنا فى كثرة الملتمسين لهذا التوفيق .

الامتحان العسير :

... ونحمد الله أن الإطار السياسى الذى طرح فيه هذا المشروع الإسلامى والأدب الذى تأدبت به الحركة الإسلامية يمهد مناخاً صالحاً لأن يكون الشعب كله منفعلا ، حكومة ورعية ورعاة .. حتى الذين كان لهم تاريخ طائفى ، انحصروا فى هذه الرسالة التى استوعبتهم الآن وكسرت حاجز العصبية وكان يمكن أن يُفضُّوا عنها لأنها لم تأت من تلقاء ما عهدوا من قياداتهم ومراكزهم .

والحركة الإسلامية لما انفعلت بهذه السماحة وهذه السعة ، أعدت كذلك غيرها من الجماعات .. ولو أنها زهت بأمرها وأرادت أن تسلب الفضل ، لنفرت كثيرا من المسلمين ولوقع التحاسد والتباغض بين الناس ولسقط بينهم الحق :

س : ولا نتقلت – أيضاً – من وسيلة إلى غاية ولكانت سبباً فى الإساءة للحقيقة الإسلامية .

الترابى : نعم ... ونحن بالطبع لا نضمن ، مهما اعتصمت الحركة الإسلامية بدواعى تجديد ذاتها ومواكبة التسيارات ولكن لا نريد أن نكل أمر الدين لأية جماعة كانت ، وإنما الجماعة المجاهدة الداعية هى مثل الفرد المجاهد الداعى ينبغى أن يفنى ذاته وأن يستشهد فى سبيل الله سبحانه وتعالى .. فحركة الإسلام التى كانت مؤهلة بشىء من زاد الفقه والزاد الإيمانى تفنى اليوم فى المجتمع .. وكلما تحقق للمجتمع وجود وحضور للإسلام كلما ذابت هى فيه لأنها

ليست غاية لذاتها ، وهذا امتحان عسير فى مراحل الانتقال لكل حركة .. وكثير من الأحزاب التى ادعت أنها طلائع لتحول اجتماعى لما وقع تحول اجتماعى ، أصرت على أن تظل هى متمكنة فى السلطان وتحتكر السلطة ، وأضر ذلك بقضيتها ذاتها لأنها بدلا من أن يحاصرها الأعداء الذين يريدون أن يكيدوا لها ، رضيت هى بأن تحاصر نفسها .. وبدلا من أن يعزلها غيرها ، اعتزلت هى وتجردت وأصبحت جسماً منفصلا عن المجتمع .

وهذا يقتضى شيئاً من الصبر ومن التربية .. فكلما اتسع الإسلام ، ضعفت هى .

الموكب الإسلامى :

س : المشكلة قد تكون إلى حد بعيد ، بسبب من سيطرة الصفات الحزبية على أخلاق الدعاة ، الأمر الذى أوقع بعض جوانب العمل الإسلامى بمشكلات وحال دون بلوغه المدى المطلوب .

الترابى : هذه الصورة المثالية للتدين التى ترى أنه ليس أهلا لأن يكون واحداً من الرعية المسلمة ، إلا من بلغ قدراً هائلا من الإيمان والإخلاص والجهاد والتقوى – وهكذا – صورة غير صحيحة .. فالموكب الإسلامى يستوعب الناس أجمعين ولكل دوره ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ .. ولربما الضعيف الذى يستوعبه الموكب ، لو أن الموكب عزله لظل مرتكسا فى جاهليته ، ولكن إذا حمله الموكب

فلربما تستيقظ فطرته ويصبح من السابقين ويتجاوز بعض قدامى السابقين .. وهذا ظهر لنا حيث إن كثيراً من الغافلين القاعدين الذين كان يمكن أن نباهيهم بكسبنا ، لما انفتحت حالة الإسلام ، تقدموا .

س : فى الحقيقة عندما تكون العلامة والتقدير للقيم وليس للأشخاص تنتهى هذه المشكلة .

الترابى : وهذا هو معنى الدين .. حتى بالنظر لشخصية الرسول ﷺ فقد كان القرآن يعلمه هذه المعانى : ﴿ وَمَا مُحَمَّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ كان الكفار يركزون على شخصية الرسول ﷺ ويهاجمون رسالة الإسلام من خلال هجومهم على الرسول ﷺ وهو دائماً يذكرهم بمضمون الرسالة .. وبعض المسلمين – ضعاف الإيمان – كانوا يتعلقون بشخص الرسول ﷺ .

س : وفى تقديرى حتى عدم التسمية بمحمديين بالنسبة إلينا ، كانت ذات مغزى وأثر عظيم إذ ارتبطنا بالقيمة ولم نرتبط بالشخص عبر التاريخ .. لكن المشكلة الآن هى فى ممارسة المسلمين .

الترابى : ما أن تكامل الأنموذج السنى الإسلامى فى دولة تمثلت فيها كل معانى الدين حتى قبض رسول الله ﷺ وأصبح لزاماً على المسلمين أن يتوجهوا على الطريق ذاتها وليس على الشخص .. ولذلك نشروا الدعوة وبسطوها فى العالم .

حركة الصفوة وحركة الأمة :

س : لاشك بأن يكون الأصل فى هدف دعاة الإسلام : حكم القيم الإسلامية .. ويستوى عندهم أن يصلوا هم إلى السلطان أو أن يصل الإيمان إلى السلطان .. وفى التاريخ الإسلامى نماذج لوصول أهل الإيمان إلى السلطان أو لوصول الإيمان لأهل السلطان .

فكيف ترون الطريق الأمثل الآن من خلال المعادلة الدولية القائمة ومن خلال الظروف الحالية والتجارب التى مرت بها الدعوة الإسلامية ؛ خاصة وأن الدعوة الإسلامية فى السودان مرت بعدة تجارب من المعارضة والمواجهة والمصالحة وما إلى ذلك ؟

الترابى : هذا فرع عن الأصل الذى أصّلناه سالفا .. ذلك أنه إذا أخلص الدعاة لما يؤمنون به لكان هو أعز عليهم من أنفسهم وللتمسوه أنى جاء .. ذلك فى الصلة بينه وبين المجتمع ، أن يتيحوا للمجتمع كذلك أن يؤدى دوره ، ومهما تضاءلت نسبة الفرد من عامة الناس من التدين ، إلَّا أن أقدار التدين التى تتأتّى من حركة شعب بأسره أضعاف ما يمكن أن يتأتّى من حركة صفوة مهما بلغت ، وهذا أضمن إلى بلوغ القيم وإلى إثباتها من أن نحتكرها لطائفة .

... وكذلك الصلة بينهم وبين الحاكمين ومعروف أن حركة الإسلام - لأسباب تاريخية - انفعلت بشيء من الجفاء للحكام ، ذلك أن حكام المسلمين كانوا دون سائر القيادات الفقهية والشعبية ، نصيباً من التزام الإسلام فى ما يليهم من الحكم ؛ ولذلك انفعل المسلمون عامة بشيء من الجفاء لهم ، ووضع من التقويم الفقهى أنهم لايؤسسون حكمهم على أصل شرعى مقبول ، وإنما تجاوز الفقهاء ضرورة عنهم .. ولذلك كان الحكم دائماً مشبوهاً حتى فقهياً .. وحتى الحركة الصوفية التى انتظمت العالم الإسلامى ، كانت نوعاً من اليأس من أن يربى الحكام الشعب وأن يأمروا بمعروف وينهوا عن منكر أو أن يحققوا وحدة المسلمين ... فحاولت بالطرق المنبثة فى قاعدة الشعب ، أن توحد المسلمين حول مركز ولاء آخر وأن تواليهم بالتربية من تلقاء القطاع الخاص ، كما نقول الآن .

وزاد ذلك أن الحركة الإسلامية فى عهدها الحديث ، بدأت غريبة بدعوتها لأول مرة وفزع منها كثير من الحكام فصادموها بعنف شديد وعذبوها واضطهدوها ، ولذلك انفعلت هى ، لا فقط بهذا التاريخ ، ولكن برد فعل من هذا الواقع القائم فى كل بلد - تقريباً - من بلاد الإسلام .. ولما كانت الحركة الإسلامية تنشأ دائماً فى قطاعات المثقفين ، فإن الثقافة الغربية التى انفعل بها هؤلاء المثقفون ، هى ثقافة فيها كثير من الرفض .. وقد شاع فيها فى العهود الأخيرة الثورية

والرفض ومنهج التحول العنيف ، وشاع عند كثير من المثقفين رفض الواقع – حتى بغير بديل – والثورة عليه حتى بغير تصور لقبلة معينة .

كل هذه العوامل : التاريخية والذاتية والمجلوبة من الخارج ، أثرت على كثير من الدعاة المسلمين .. بل دعتهم أحياناً ، عمداً إلى أن يعزلوا أنفسهم فعندما لايتمكنون من مصادمة الدولة بالقوة يعتزلون جانباً .

معطيات التجربة الإسلامية فى السودان :

... ولكن ، هنا فى السودان ، تهيأت لنا ظروف من الابتلاء وظروف من نشأة فقه ، حاولنا من أول يوم أن نتعامل مع المجتمع بيسر وأن نتفاعل معه ... وأهلنا ذلك ، كذلك ، أن نمد أسباب التعاون والتفاعل ذاتها مع السلطان .. كما اكتشفنا فى المجتمع قدراً كثيراً من الخير ، وأن اليأس منه وقطع الثقة به جملة واحدةً أمر غير مؤسس ، وإنما يُعين ذلك شيطانه عليه ويضطره إلى أن يتخذ من الحركة الإسلامية موقفاً معيناً .

ولذلك ، صالحت الحركة الإسلامية المجتمع وصالحت الدولة أيضاً .. صحيح أن المصالحة تعنى أن يختلط الحق أحيانا بكثير مما يراه باطلا .. وكثير من المسلمين يفزعون من هذا الاختلاط ويريدون الحق بائناً فى جانب والباطل بائناً فى جانب آخر حتى يقولوا القولة المشهورة : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ فماذا بيننا وبينهم ؟

.. ولكن ، إذا اختلط الحق بالباطل ، لا أقول اختلط فى أذهان الناس ولكن اختلط فى الواقع واتصل ، قوى ذلك وزاد أهل الحق إيماناً ، من هذه المجاهدة والمفاعلة .. ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَ وَالبَاطِلَ ﴾ . ومن هذه المدافعة يحقق الله التدين ، وبغير هذه المدافعة تفسد الأرض كما يقول القرآن : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

فمن خلال هذه المفاعلة أعدى أهلُ الخير أهل الشر وحاصر أهل الخير الشر ولم يُحاصَروا هم ولم يستعيذوا ويفروا إلى شعاب الجبال ، بل دخلوا معه فى كل مدخل وطهروا منه الأرض .. وتحقق بحمد الله سبحانه وتعالى هذا القدر من الإيمان وتوحد عليه المجتمع بغير صراع ، لأن الصراع – بالطبع – له مغبات كثيرة .. وقد يضطر المسلمون للجهاد وقد يضطرون للصراع ، وهذا باب وارد فى الدين ولا نقول إن الدين لا يتأتى إلا من خلال المصالحة ولكن هذه الطريقة هى الطريقة الحسنى .

س : لكن ، يبدو – والله أعلم – أن اعتماد أحد الطريقين بإطلاق فيه خطورة ، وقد يوصل إلى طريق مسدود ويحول بين الدعوة وتحقيق أهدافها .. ولذلك لابد أن يفكر بالطرق الأجدى فى كل مرحلة وبما تقتضى . إن صورة بعض العاملين للإسلام اليوم ، أصبحت فى أذهان بعض الحكام أنهم لا يريدون من وراء التعامل مع السلطان إلا أن يكونوا بديلا فى الحكم وما إلى ذلك .. فهذا ولَّد تهمة لهم بأنهم يطلبون

السلطة . وقام نوع من الصراعات الشديدة ربما يكون قد أعان الشيطان على السلطان وحال بينه وبين أن يصل صوت الإيمان إليه فى كثير من الأحيان .

الترابى : شأن المسلم أن يستعد لكل ابتلاء بما يناسبه من التدين .. ولما كان فى وسائل ومناهج الدين سعة – لا يقابل المحسن إلا بالحسنى ويجادل بما هو أرفق وألطف به ، وإذا انقلب الأمر وجابهه العدوان فلا يستكين ولا يلين وإنما يرد العدوان بالجهد ، كان لابد أن تستعد الحركة الإسلامية بكل المناهج وكل الأدوات حتى تحسن وضع الأمور فى مواضعها ولا تفوّت فرصة لأنها تفقد – حينئذ – الأدوات المناسبة لهذه الفرصة .

ومن بعض وجوه البركة علينا أننا قدرنا بعد أن قام الدين هنا ، لا من تلقاء الحركة الإسلامية مباشرة ، ولكن من مناصرتها وتعاونها ووصل جهدها بجهد الحكومة القائمة ، أن عُمِّى الأمر بعض الشىء على بعض الذين يريدون أن يكيدو للإسلام ؛ لأنهم لو رأوا الحركة الإسلامية التى يرهبونها أيما رهبة ويتهمونها بالإرهاب ، هى بذاتها ووجهها تصل إلى الحكم ، ربما حملوا على واقع الإسلام حملة أضخم بكثير مما تحتمل الطاقات المدافعة الدينية فى هذا البلد .. ولكن الله سبحانه وتعالى يلطف بعباده ويستر ويحمى أحيانا ويُلقى غشاوة على أعين الآخرين ، ويعصم عباده الدعاة كما عصم الرسول ﷺ من الناس .. وقد يكون من بعض هذه الغشاوة وهذه العصمة أن يتخذ

الشكل الإسلامى شكلا يرونه أقرب إليهم مثلا شيئا ما أو أقل بشاعة فى أنظارهم ، ولكن يبقى أن جوهر الحق واحد مهما كانت الأثواب التى يلبسها .

خطاب الدكتور / حسن الترابى

فى المؤتمر العام الثانى للجبهة الإسلامية القومية

[والذى عُقد فى الخرطوم فى ١٤ يناير سنة ١٩٨٨]



بسم الله الرحمن الرحيم

التحيات الطيبات لله العلى الحميد المبدىء المعيد الذى بنعمته تتم الصالحات والصلوات الزاكيات على محمد وسائر المرسلين الدعاة الهداة

والسلام عليكم من الله والرحمة والبركات .

... **وبعـــد ، فهذا بفضل الله المؤتمر العام الثانى للجبهة الإسلامية** القومية – موسم عود إلى الأصول : .

فهو – أولا – إجماع مثاب إلى ربنا الذى التقينا عليه أول مرة يوم التأسيس منذ بضع وثلاثين شهرا يوم منَّ الله علينا بعد رجب بحرية التداعى إلى هدف الإسلام العزيز والتوالى فى صفه العريض . فاليوم مثاب تذكر وتدبر وإحياء ألاّ يطول علينا الأمد فتقسوا القلوب عن الذكر وتجمد العقول عن الفكر وتفتر الأجساد عن الجهاد . وهو مثاب مراقبة لله ومحاسبة للنفس ألاّ تمر السنون هدرا ونحن فى غمرة مما يشغل وسكرة من الغرور بما نكسب .

ومؤتمرنا – **ثانيا** – مرجع إلى الشعب لأنه أهل السلطة والولاية ، من شرعية سلطانه نستمد تعيين الولايات وتنصيب القيادات لدورة قادمة بإذن الله : ولأنه أهل القرار والهداية من تداوله بالشورى نتحرى حقائق الواقع ووجوه الحق ، ومن نبض مشاعره نتلمس

الحاجات والوسائل فنجتهد لنرسم التوجهات والسياسات التى تهدى مذاهبنا ومواقفنا . ولأنه أهل السائلية والوصاية بالتعرض لمحاسبته وموعظته نستبق مسئوليتنا عند آجل الحساب الأكبر ونتقى التمادى فى الضلال .

نرد ذلك كله إلى جمهور المؤتمرين ونصله كذلك باخوة لنا من خارج الجبهة وآخرين من خارج السودان نحسبهم من أولياء الإسلام أو أصدقائه اتخذناهم مراقبين ناصحين . ويجرى ذلك الائتمار كله فى الملأ والعلن نعرض به للوطن والعالم أجمع ليسمع ما وجه الحق فيما نقول ويرى ما مدى الصدق فيما نفعل . فنحن حركة مشهورة على الناس لا يضرها بل ينفعها ما يعلم منها وما يحكم فيها العدو بله الولى .

ومؤتمرنا – **ثالثا** – وقفة تخطيط لدورة قادمة ، فحركة الإسلام بصر نافذ وعمل ممتد فى آفاق الزمن عبر الدنيا حتى الآخرة ، فهى لا تضرب كالعشواء ولا تخوض مع الخائضين بل ترسم الخطة قبل الخطو والمصير قبل المسير .

ذلكم هو مغزى مؤتمرنا هذا الثانى ... أما طبيعة جبهتنا فهى حركة إسلامية الهدف شعبية الصف .

أما أنها إسلامية فذلك – أولا – إنها حركة تأصيل للحياة على أصل الإيمان بالإسلام . فلئن كان غالب المسلمين يؤمن بمسلمات الاعتقاد وتأخذه العزة بهويته الدينية ، ويباشر بعض شعائر العبادة

وشرائع الحياة الخاصة .. ولئن كانت غالب دولنا تترسم مراسم الدين فى الحياة العامة ، وتتحلى فى مقولاتها وصورها السياسية بشىء من شعاره ودثاره .. لئن كان ذلك كذلك فإن اللادينية السياسية قد أصبحت النهج الغالب فى حياتنا : حكمنا بالوضع لا بالشرع وسياستنا للسيادة لا للعبادة واقتصادنا شهوة تمتع وسطوة تظالم وفننا لهو بالجمال ورياضتنا لعب وتغالب وعلمنا تعلق بظاهر الحياة دون حكمتها . ذلك داء لم يسلم منه تاريخ ملة دينية وقد أصاب المسلمين حديثا فنقص حظهم من الدين وتضاءل من ثم كسبهم فى الدنيا . ثم تاب عليهم الذى يحيى الأرض ويبعث الموتى فغشيتهم نفحة من رحمة التجديد التى انتظمت العالم الإسلامى قاطبة . وما الجبهة الإسلامية إلا تجسيد ذلك البعث على أرض السودان وفرع من صحوة الإسلام المعاصرة .

فالجبهة بإسلاميتها - **ثانيا** - تجديدية لاتتخذ الدين محض تراث ومجداً تليداً ولا تدلى إليه بالانتساب إلى شرف السلف . فالولاء للجماعة ليس عندها عصبية لتركة الآباء ، والإمارة ليست عهداً لسلالة صالحة ، والبرنامج الشرعى ليس تقليداً لما كسب الأقدمون . بل هى حركة إحياء لسنن الدين المتقادمة بالعود إلى أصوله الأولى وراء التراث ببدعه وإبداعاته وهدايته وضلالاته . وهى أيضا حركة تقدم بالدين مع ظروف الابتلاء المتجدد وصروف الزمان الحديث بفقه عميق لأحكام الدين ومقاصده وقيمه الشرعية الأزلية وبعلم محيط بوقائع العصر وحقائقه وتجاربه وعلومه وحاجاته وإمكاناته .

وتنزيل لما هو أزلى مطلق على ما هو عصرى حادث من أجل تحقيق مقتضى الدين المكتوب على هذا القرن من المسلمين فى هذا البلد . فالجبهة تنهل من تاريخ المسلمين عامة وتبنى على كسب أهل السودان خاصة – فى القرآن والفقهة والتصوف والجهاد ، لا تنقطع عن التراث بل تعد نفسها صلته فى الحاضر لكن بالمغازى دون الصور وبالاتباع بعد الانتساب وبالالتزام دون التمنى . لكنها من وراء التراث لا تحتجب عن أصول الكتاب والسنّة ولا عما حدث بعد من علوم الحياة والكون .

ولأن الجبهة نفسها وعى متجدد فقد أمها الشباب الذى لم يعد منفعلا بالتقاليد البالية ولم يشأ أن يلهو عن جد الحياة المسئولة المتدينة . ومن هؤلاء طلاب العلم الذين أوتوا العلم والهدى من الله ثم من تربية الحركة الإسلامية ودرسوا فى معاهد نظامية وضعت أصلا لصياغة جيل متغربن متعلمن، وأراد الذى أخرج موسى من بيت فرعون أن يجعلها منابت للشباب المسلم وأن يمكنهم فى قيادتها جميعا .

والجبهة بإسلاميتها – **ثالثا** – حركة توحيد تؤم كل مقاصد الحياة فواهمٌ من يقيسها على الأحزاب السياسية أو يحسبها مشروع طلب للسلطة . فإنما هى التزام شامل بهذا الدين الكامل الذى يوحد لله المعابد فيوحد المقاصد سياسة واقتصادا وسلما وجهاداً وثقافة واجتماعا وترويضا وترفيها وتعلما وصلاة ونسكا ومحيى ومماتا لله رب العالمين . فهى قوة فى السياسة تجند وازع السلطان كما تجند وازع الوجدان ، وتسعى بقوتها الذاتية كما تسعى لدى ذوى القوة حتى

تصلح الأمور وتساس برشد وطهر . لكنها لا تستغنى بالسياسة والسلطة لأنها حركة تغيير شامل تعدُّ أعضاءها ليكونوا أدوات تغيير يطهِرون ويطهرون . وبرامجها تتوخى الإصلاح بكل الوسائل فالأمة لم تنحط بالسياسة ولن تنهض بها وحدها . فمن كسبنا بفضل الله وتوفيقه إحياء روح التدين وعمران المساجد وكانت قد هرم روادها وخرب رواقها ، ونشر القرآن وكان قد غدا مهجوراً خارج الخلاوى ومن كسبنا تربية الشباب الذى لم يجد مترببى فى البيوت التى أهمتها المعاشات ليس إلا أو المعاهد التى تلقن المعلومات ليس إلا . ومن كسبنا بسط سنن الخير بالجهد الطوعى الأهلى كإغاثة الملهوف وإيواء اللاجىء ورعاية اليتيم وإطعام الجائع وإسعاف المريض وإخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ننافس فى ذلك سائر المبشرين .

ولعل من أكبر كسبنا تحرير المرأة السودانية انعتاقا من تقاليد ظالمة زائفة واستقلالا عن دعوات وأعراف من الإباحية المفتونة . إن قومة المرأة المسلمة فى السودان ظاهرة تطور اجتماعى جليلة المغزى بورت مخططات تغريب المرأة وتخريب الأسرة المسلمة ، ودفعت النساء إلى باحات الدين وساحات الحياة بروح رسالية عالية يبنين مع أشقائهن الرجال نهضة المجتمع الرشيد فيقوم المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم .

والجبهة بإسلاميتها – رابعاً – حركة سماحة وبر وقسط مع غير المسلمين لا تتخذ الملة الدينية شارة هوية للمجانبة والشقاق ، فالدين

تأكيد للمشترك من معانى الإنسانية التى جاء الدين كله ليزكيها ويرقيها ويذكرها بوحدة أصلها ومصيرها مهما اختلفت الأعراق والألوان والألسن والأعراف . وتأكيد للهدى المشترك من ملة إبراهيم الجامعة لأصول الهداية السماوية الباقية مهما جرتها التحريفات والتصرفات التاريخية إلى حروب صليبية واستعمارية وطائفية وأهلية . وهو تأكيد للمشترك من عهد المواطنة الذى أمر الدين برعاية ذمته وأمانته . فالجبهة تتسع دستوراً وفعلا لغير المسلمين فى السودان لأنها نموذج للدولة الإسلامية التى وسعت ملل الناس كافة بغير إكراه فى الدين أو حرج فى المعاملة الاجتماعية أو إضرار بحقوق المواطنة أو إهدار لحرمات الإنسان .

والجبهة شعبيـة الصف فى المكان الثانى :

وهى بشعبيتها – **أولا** – ناشئة عن التيار جماهيرى عريض تجسد فى المؤتمر التأسيسى القومى الجامع والمؤتمرات المحلية اللاحقة فليست هى كسائر التنظيمات التقليدية حشداً من العامة فقط لا يكاد يغشاها إلا أفذاذ متعلمون ابتغاء المناصب ولا هى بتنظيم نخبة أو صفوة وقد كان الماضى من سنة المثقفين فى السودان أن يختصوا دون الجماهير بتنظيماتهم ينتقون لها الأعضاء ممن يليهم ويعكفون بها على خصائصهم المستعلية على سواد الناس . ولئن كان لبعضنا على ذلك اجتهاد مرحلىّ أو تجربة لم تنضج ، فقد دخلنا بالجبهة فى دين الله أفواجا العالم والأمى والمثقف والساذج ، فكانت الجبهة أول مشروع للتوحيد بين الخاصة والعامة من الجماهير باختلاف مشاربهم الصوفية والسلفية والتربوية

والجهادية يتفاعلون بالحب والخير فيذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس . هكذا عاد الدين كما ينبغى خطابا عاماً للناس كافة يتحقق ببسط معانيه وأخلاقه ويتمكن فى الأرض بقوة العامة ورشد العلماء معاً .

فليست الجبهة جماعة مغلقة تحتجب من الناس أو تعتزلهم خوفا أو قنوطا . ولقد دفعت ظروف الاضطهاد فى عالمنا بعض حركات الإسلام إلى السرية والانطواء ، حتى غدا لها ذلك عادة فى ظرف الرخاء والشدة يفوق من فرط الحذر نشر الدعوة ، وحرم الفكر من حركة الحوار وبركة الانفتاح فتجمد وتجرد ، وتولدت على السرية شكوك مظلمة حول مرامى الحركات غذتها الشبهات التى يلقيها أعداء الإسلام .

والجبهة بشعبيتها - **ثانيا** - تسند المشروعية بعد حكم الله إلى الشعب وتجعل أمرها ونظامها كله شورى . وأنّى لبلد أن يحاول بناء صرح الديمقراطية بينما تفتقد أو تنقص فى تكويناته السياسية والاجتماعية . فالجبهة ولاء وعى واختيار لا يوضع فيه وضع القيادة والقاعدة بالتسلط أو التاريخ ولا يستغنى فيه عن التفويض الشعبى المباشر بالتفويض الغوغائى أو الموروث ، ولا تستبد به زمرة قيادية باسم الديمقراطية المركزية . بل هى بناء متكامل من فروع لا مركزية تختار قياداتها بالانتخاب الحر بغير وصاية . ثم هى هيئات مركزية تختار بالشورى وتسير بالإجماع وتحاسب بالنصيحة . وهذا المؤتمر قمة من مؤتمرات القرى والأحياء ثم المجالس الريفية والحضرية ثم المناطق

الأكبر ثم المحافظات - مؤتمرات انعقدت توازيا وتباعا لستة أشهر ماضية لتثمر هذه الهيئة التمثيلية العليا التى ستنتخب القيادة المركزية الشورية والتنفيذية .

والجبهة شعبية - **ثالثاً** - بكون قاعدتها لا تعول على الحركة القيادية ولا تقعد تتربص حملات الحشد والتعبئة تجاوباً مع مبادرات القيادة بل يؤخذ على الأعضاء العهد بالالتزام ويحمل عليهم بتكاليف العطاء المعين فى الدعوة والحركة والجهاد بالنفس والمال ويؤهلون لذلك بحلقات العلم ومناهج التربية الشخصية والتدريب الوثيق . وبين يدى المؤتمر أوراق ولوائح تركز العضوية وترق كيفها مع رقى كمها .

والجبهة شعبية - **رابعاً** - بكونها نابعة من الشعب السودانى لم تفد إليه من كيان خارجى ولم ترد إليه بمذهب أو ذهب أجنبى . بل هى من فطرة الشعب وتراثه الدينى وبإمكاناته وقدراته ومن أجل قضاياه ومصالحه وحاجاته . والأصالة الوطنية ضرورة فى بلد ابتلى لحد الارتباك والارتهان من كثافة وافدات الأحزاب الدخيلة وغازيات التأثير على الأحزاب الوطنية . ولكن أصالة الجبهة الشعبية الوطنية ليست مصابة بلوثة العصبية وضيق الأفق القطرى . أما القومية فى عنوان الجبهة فهى فى مصطلح السودان كلمة جمع لا كلمة عرق . فأصالة الجبهة موصولة مع من يتصل بهم الشعب بقيمه الإسلامية ومصالحه الوطنية . فمن حيث الجبهة ظاهرة فكر دينى مطلق تعتبر رافداً من تيار الإسلام المتجدد ، ومن حيث هى هم إسلامى عالمى

المدى تتصل بالقوة الإسلامية والوطنية فى العالم . وترون مصداق هذا فى هذا المؤتمر فى مغزى دعوة الذين شهدوا مشكورين والذين حبسهم العذر من الأخوة فى الإسلام والعروبة والأفريقية والإنسانية .

وهى شعبية – **خامساً وأخيراً** – بكونها قومية جامعة ليست لأقليم معين ولا فئة دون أخرى . فإذا كانت الأقاليم المترامية فى السودان قد تقطعت ولاء أهله فنشأت كيانات عرقية ومحلية وتكتلات ضغط داخل الأطر القومية . فالجبهة قد نشأت من أول يوم مبرأة من ذلك – يمتد صفها باستواء فى الغرب والشرق والوسط والجنوب والشمال . ولئن انشق جنوب السودان سياسياً واستقل بأحزابه منذ خمس وعشرين عاماً ، فقد كان فضلا من الله أن شارك فى تأسيس الجبهة ويشارك فى قيادتها جنوبيون خالصون . وكذلك اتسعت عضوية الجبهة للرجال والنساء وعبر فوارق العلم والكسب المادى والوضع الاجتماعى ، ففيها الحضرى والبدوى والتاجر والعامل والمتعلم والأمى كلهم يدخلها بوعى ويقوم فيها على أساس من المساواة والتآخى .

السياســة :

قد يجدر بنا فى عالم مولع بالسياسة وحركتها الدرامية المثيرة أن نعرض بمزيد بيان كسب الجبهة السياسى .

فنحن فى الجبهة – **أولا** – أصوليون منهجيون نؤثر أن نعرف بالأصول قبل الفروع والمناهج قبل المواقف – لأننا فى المقام الأدنى

بشر نخطىء ونصيب لكننا لدى المبادىء العليا أقرب إلى العصمة بحق الدين . فالجبهة تنطلق من تقديرات عقدية صارمة تنخسف لديها الاعتبارات الشخصية وولاؤها للحق المطلق الذى تنحجب لديه العصبية الحزبية . ولأنها تلتزم المنهج الإسلامى الشامل وتصدر فى كل قضية عن أصول واحدة لا مكان عندها للتبعيض والتلفيق . ولأنها تلتزم صدق التدين لا تعرف الهزل والتزيف ولا تباعد بين القول والفعل ، وتحملنا الأصولية إلى منهجية فى التعبير السياسى ندرس أمورنا ولا نعرف سياسة الارتجال والانفعال . وتعصمنا الأصولية بوحدة المقولات والمواقف فتسلمنا فى الجبهة من الأجنحة المترنحة والصراعات والتناقضات الواسعة . وتدعونا ذات الأصولية إلى الاستقامة والوضوح مع الرأى العام ، لأن السياسة عندنا وظيفة تمثيلية مسئولة ليست مسرحاً للمناورات والمراوغات والتقلبات والتلبيسات المخادعة للدهماء .

والجبهة - **ثانيا** - تدعو فى السياسة بالحسنى وتتحاكم إلى الديمقراطية - سنة الأنبياء الذين دعوا قومهم ألاّ إكراه ولا إرهاب وأن يعمل كل على شاكلته ومكانته ويصبر وينظر لمن تكون عاقبة الدار . فالإسلام دعوة لطف وترفق تقنع بالحسنى والطوع والسماحة ، والإسلام مشروع حضارى لا يحققه التشدد والتعانف بل يلزم فيه الصبر والحكمة . فالجبهة تؤمن بالإصلاح المطرد المتدرج دونما فتنة أو اختلاف ، لكنها تأبى المطل والتسويف وتنكر الفتنة والعنف الذى وقع على جانبا من حركة الإسلام العالمية فدفعها إلى

المجاهدة. الثائرة في وجه الذين يريدون إطفاء نور الله وإسكات صوت الحق بالقوة والظلم والعلو والفساد في الأرض .

إننا نريد الديمقراطية عقيدة مطلقة القيمة في الذات والغير لا حيلة ترعى ماوافت غرض الذات ولا تطفيفاً يكيل بمعيار مزدوج يعلى سيادة الدستور وحكم القانون حتى يكون الأمر باليد والدائرة على الآخر ، فيزين التخصيصات والحصانات غير المساوية والتسلطات غير العادية .

إن الله قد كتب لنا من الواقع الديمقراطي أن نقوم خارج السلطة في وجه الحكومة ننقد ونقوم وننصح ونلوم ونتعاون ونتعاذر . ولربما نكون حركة فعالة بلغت بوطأة المعارضة على الحكومة مالم تعهده ديمقراطية السودان الذى ما جرب إلا حكومة ائتلاف متمكنة محتكرة لا يقابلها شيء يذكر . وليت شعرى هل يصبر علينا السلطان أم يضيق ذرعا بالنصح وتأخذه الغيرة من المنافسة والغرور بالسلطة فيكبت صوتنا في مرافق الإعلام العام ويفصل العاملين منا عسفاً ويعتقل استبداداً ويكيد لعمل الخير بسلطته حسداً . مهما يكن فإن القيام خارج السلطة وهو مقام حرمان عند بعض الناس قد أصبح ميزاناً للديمقراطية ، فيوم كانت القوى السياسية الدستورية كلها في الحكومة ويئس الناس منها لم يجدوا متنفساً أو بديلا إلا خارج الإطار الديمقراطي ورحبوا بالانقلابات . وديموقراطيتنا اليوم أصدق ما تكون بحريتها – لاسيما أن تمثيلها للشعب معيب بالعصبيات والمؤثرات – فما استقمنا للحرية جميعاً حفظنا ما عندنا من الديموقراطية حتى

نستكملها تدرجا وتصبح حكم الشعب حقا . وإذا فرطنا فى الحرية للمعارضة أوشكنا أن نفقدها جميعاً .

وسمة سياسة الجبهة - **ثالثا** - قومية المنهج .. إننا ننافس فى ساحة الوطن قوما قاعدتهم التاريخية مؤسسة على الدين ومهما تبارزنا فى مدى الاستهداء بالدين وصدق الالتزام به فإن وشيجة الدين قائمة وحاكمة بيننا . وطالما جمعتنا أيضا مراحل التعاون الجهادى ضد التسلط اليسارى . وما أكثر ما يدعونا لتوحيد الناس فى بلد ملؤه المخاطر والتحديات . فكان من ثم لابد من مساحة قومية نخرجها من المساحة الحزبية لنحفظ المصالح الحيوية لبلادنا ونخدم القضايا التى ينعقد عليها إجماع لاسيما فى أمر الأمن والدفاع والسياسة الخارجية .

ولقد تداعى الرأى العام السودانى مرة بعد مرة إلى حكومة قومية تجمع الكلمة الوطنية . وكنا لأول العهد نقدر دواعيها الملحة ونسارع إلى الاستجابة حريصين دائما أن تؤسس على سياسات مفصلة وتنعقد بين عناصر متقاربه لئلا تتشاكس فتتشل وتفشل فكثير من الخلطاء المؤتلفون فى الحكم يبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

ولقد أصبحنا اليوم أزهد ما نكون فى المشاركة حامدين الله أن أراد لنا المفارقة لنبرز بديلا متميزا متحيزاً من حيث خيار الحق بين مختلف المذاهب ومدى الرشد والطهارة والفعالية فى شتى السياسات حامدين كذلك أن اختار لنا الله المعارضة لنبنى صفا خالصاً

لا تلابسه رهبة من سلطة ولا رغبة فى مغانمها لا يدخله إلا المخلصون وذلك ألزم ما يكون لمرحلة تأسيس بناء دينى الطبيعة والهدف . وقد قدر الله حظا من تأليف القلوب إلينا فنرى الناس مقبلين غير مدبرين ونرى أهل الوعى أقرب والشباب أعجل إلى صفنا ونرى بشريات مرضية فلا ننقم على أحد يريد أن يستأثر بمغنم السلطة من دوننا حتى يحكم بيننا مالك الملك مداول الأيام .

* * *

الشريعـــة :

بعد المنهج نتعرض لمضمون سياسة الجبهة ، والأمر كله فى ذلك راجع إلى تحكيم شريعة الله فى الأرض لأنها الكلمة المقدسة التى تمت صدقاً وعدلا لا مبدل لها من دون الله . ولئن قصر البعض مصطلح الشريعة على القانون فالقانون عندنا ينبغى أن يؤصل على الشريعة لا شرك معها لعرف جاهلى ولا ملتحد عنها إلى تراث استعمارى . ولقد رأينا تلبيساً كبيراً يعمد إلى تسمية الشريعة قوانين سبتمبر ليتيسر النيل منها دون إثارة الشعب ونريد أن تتحرر المسألة عن بيّنه ونعلم العلمانين الذين يأبون الشريعة كيفما جاءت ونعلم المؤمنين . فالشريعة ليست بالضرورى أشكال القوانين التى اتخذها نميرى ينافس بها دعاتها ويسابق آخرين . لكن لا ردة عن تلك القوانين إلى ما هو دون الشريعة ولا زريعة فى الاحتجاج بالتباين الدينى فالشريعة بجوهرها أحكام تعبر عن فضائل مشتركة بين كل الملل السماوية التى تأبى

الربا والخمر والعدوان على النفس والعرض والمال ، هي لذلك أقرب إلى كل الملل من القانون اللاديني . ولكن الشريعة بأشكال تطبيقها تحفظ لغير المسلمين خصوصية قانون الأسرة وتعرف الاستثناء فى إنفاذ الحدود . وقد اقترحت الجبهة وأجازت طائفة من علماء المسلمين تخيير غير المسلمين حيث ما غلبوا فى أى اقليم وهو ما اتفقت عليه الكلمة القومية بين الأحزاب الثلاثة الكبرى . سوى أن الشريعة عقيدة دين وأصالة تاريخ وإرادة شعب لغالب أهل السودان فلا خديعة فى الشريعة ولا مساومة ولو كره الغربيون استقلالنا القانونى أو أنكروا قيمنا الجنائية والعقابية أو زينوا لنا أن نأكل كما أكلوا المال بالربا والاستغلال .

ثم إن الشريعة فى حقيقة معناها ليست قانونا وحسب كما يتوهم الناس بل هى تكليف شامل ونهج حياة فيه أحكام اعتقاد وعمل ، ومن هذه قوانين تنفذها إجراءات السلطان وتعاليم تعرفها أعراف المجتمع وأخلاق يراعيها الوجدان المسلم . ولابد من تناصر أدوات السلطة والتربية والتوجيه حتى تحقق الشريعة ولن يجدى فى ذلك قانون بعد قانون يصدر كأنه كره عن ضغط شعبى بل لابد من أداة مخلصة تامة الالتزام بإقامة مجتمع الشريعة الفاضل الكامل .

الجنـــوب :

كثيراً مايعمل الوهم أو الغرض ما بين الشريعة وقضية الجنوب .

وحقيق علينا أن نتناول هذه القضية فهى الهم الوطنى الأكبر من حيث أنها رهينتنا منذ عشية الاستقلال كلما رتقناها انفتقت وكيفما عالجناها

بالحرب الأهلية أو التسوية السلمية استعرت من جديد ، ومن حيث أنها أضرت باستقلالنا واستقرارنا وبمعاشنا وأمننا ضررا بالغا ، ومن حيث أنها تفاقمت مؤخراً فتغلغل التمرد فى الجنوب وامتد إلى وسط السودان فزلزل أمن القبائل واتخذ له أولياء دوليين مدوا ذراعه الدبلوماسى .

وإذ تهتم الجبهة خاصة بهمّ الجنوب فذلك أن الجنوبين ليسوا طرفا وطنيا أخر نحاوره من بعيد ولكن منهم أعضاء مشاركون يدخلون فى صميم إدارة الشورى وصياغة القرار . ولذلك كنا أكثر انشغالا بالقضية . فمن طبيعة منهجنا كنا أوعى بالأبعاد التاريخية التى تصلها بالسياسة الاستعمارية التى زرعت القضية الثقافية والعرقية والإدارية والاقتصادية فهيات مناخاً يغرى بالمجانية وسوء الظن ويطور كل مشكلة إلى أزمة وكل أزمة سياسية إلى أضراب . وكنا أوعى كذلك بالأبعاد الجغرافية التى تسلكها فى حزام أفريقى تلتقى عنده وتصطرع المخططات الغربية لاستلاب أفريقيا واستغلالها والمد العربى الإسلامى المتمكن فيها . ولقد اجتهدنا أن يدرك الناس كل هذه الأبعاد لئلا تضلهم الصور الحاضرة والأطروحات الماكرة . ولقد قدرنا أن هذه القطيعة والصراع تستدعى توحيداً للشعب والتحاما بين جنوبه وشماله بوحدة سياسية واقتصادية وثقافية لتوطيد الوحدة الوطنية . وما تأسيس الجبهة بقوميتها الإقليمية إلا فى ذلك السبيل .

أما القضايا المعنية التى أصبحت محاور النزاع الوطنى فقد أدرنا حولها حواراً واسعاً وأخرجنا فيها منذ عام مشروع ميثاق السودان

الذى يفصل القول فى تطبيق الشريعة التى روجت الدعايات أنها سبب مشكلة لازمت جولاتها شعبنا منذ استقلاله وثارت ثائرتها الأخيرة قبل إعلان الشريعة بشهور ، ويفصل المشروع القول فى قسمة السلطات الدستورية بنظام اتحادى سمح يطور الحكم الإقليمى بمنهج انتقالى متدرج . كما يفصل المشروع القول فى قسمة الثروة بنظام وتوجيه لبسط التنمية بعدل حتى تتدارك الأقاليم المخطىء منها والمظلوم وفصل القول أيضا فى توارد الثقافات الفرعية بالسودان بتقريرات وسياسات للعدل والتعايش والتفاعل العفو بينها نحو تطوير ثقافة وطنية جامعة .

أما أمر التمرد الحاضر – لاسيما فى طوره الأخير إذ نفذ إلى بعض الثغور الهامة شرق السودان واختراق الصف الوطنى باستقطاب ولاء خائن للوطن – فقد كان حظنا الثابت إزاءه أن نوصى بضرورة التلازم بين الترغيب والترهيب والسلام والقوة والهيبة والسماحة . فنحن مع السلام بلا ريب لأنه العامل الفعال فى تسوية ما بالنفوس وفى سبيل ذلك حاورنا قيادة المتمردين وأولياءهم من الدبلوماسيين ومجلس الكنائس والقيادات الجنوبية داخل السودان . ولكنا وقفنا فى ذات الوقت مع دعم القوات المسلحة لتحفظ العرض وتحمى الأرض حتى ييأس من يتوهم إنه بالغ هدفه بإرهاب السودان أو كسر قوته أو إنهاكه أو تهويره بالخيانة المندسة فيه .

إننا ندرك البعد الدولى الجديد لقضية الجنوب ، أثيوبيا التى تنقم علينا فى ارتريا ، وكوبا وروسيا اللتان تطلبان نفوذاً متأخراً فى القارة

والسياسة الغربية التى تحرص على بقية المصالح الاستعمارية – كلهم يستغلون حميات التخاصم المحلية . ومهما كان من ذلك فإن سياسة دفاعية فعالة وسياسية خارجية نشطة حكيمة وسياسة تصالح وطنى جادة وصادقة يمكن أن تتجاوز بنا الأزمة فى القضية التى قدمنا أنها الهم الوطنى الأكبر للسودان .

* * *

الاقتصـــــاد :

ولنقل كلمة عن اقتصاد السودان الذى أضر به اضطراب النظم والسياسات المتعاقبة واستنزفته أزمة الجنوب . إنه اقتصاد معلول فى أصوله قبل أن تعله التقلبات والازمات .

فكثيرا ما تبدلت النظم والوزارات ولكن النظام الاقتصادى ظل هو هو لا يحول . فهو اقتصاد مادى يتطلب المتاع فيحفز الاستهلاك ترفا والإنفاق سفها . ويكبت دواعى الروح التى تدفع للعمل المثمر للطيبات . ويلتمس الكفاية الفنية دون اكتراث للأخلاق فيكون فيه الفساد العريض .ويقطع ما بين الدنيا وذكر الله وشكره فتمحق ثيه البركة . ثم إنه – ثانيا – اقتصاد بلا منهج تتخاصم فيه أغراض تحرير القطاع الخاص لدفع التنمية وكبحه ابتغاء العدالة فتتذبذب السياسات من التأميم إلى التعويض إلى تصفية القطاع العام وتشريد عامليه . وتتدافع فيه أولويات البناء العام وحاجات الإنسان الضرورية وتضطرب الخطط من تعاقب الحكومات التى تهمل البنى الأساسية

ابتغاء المردود السياسى العاجل . وهو – ثالثا – اقتصاد تابع يزداد كل يوم تعويلا على الخارج وقروضه ومنحه وإمداده العينى ويرتهن للقوى الاقتصادية الدولية شرقاً وغربا فتتحكم فى سياساته وفى تقويم عملته وترتيب ماليته . ومن كل ذلك أزمت حالة الاقتصاد فما تحققت فيه تنمية بل الأرض عاطلة والمشروعات عاطلة والقوى البشرية عاطلة ولا استوت له عدالة بين الأقاليم أو الأفراد وكفى الناس شر الغلاء والشقاء بل حق علينا غضب الله وحربه بما أكلنا الربا وأعرضنا فانكف الغيث وامتد التصحر وتكاثرت الهجرة من الخارج والنزوح من الداخل . وستنشر الجبهة بعد هذا المؤتمر مباشرة مشروعا متكاملا لمنهج إصلاح ونهوض اقتصادى أصوله من هدى الدين فى أسباب الانحطاط وأسرار النهضة وفحواه انقاد الاقتصاد السودانى . وهو مشروع إسلامى واقعى يبتغى إسلام شأن المعاش لله معبودا محموداً والتوكل عليه رازقا راحماً ويتوسل بالإسلام دافعاً وناظما للتنمية ببواعث الدين التى تفجر طاقات العمل المنتج وتحقق الكفاية والقوة الاقتصادية وبنظمه التى ترشد الاستثمار والائتمان ولا تترك المال عاطلا ولا الأرض مهملة . ويتخذ المشروع الإسلام أيضا هاديا وضابطا للعدالة بما ينفى الجشع والشح والاستغلال الربوى ويبسط الولاية العامة على الثروة ويفرض الزكاة ويكفى الضرورات لكل أحد ولا يترك المال دولة بين الأغنياء . كما يتخذ الإسلام أيضا توحيدا لطاقات الاقتصاد يتجاوز عقدة نزاع الملكية وقطاعاتها الخاصة والعامة فالمال كله لله ، من استخلف فيه من فرد خاص تصرف فيه بالمسئولية والقصد والعدل فى غنى عن كثير اللوائح واللوائح المعوقة للانتاج

ومن ائتمن عليه من موظف عام وليه بالقوة والأمانة فى غير شائبة فساد وخسران . ويعادل الإسلام ما بين التنمية والعدالة فى نسق من المعانى والنظم ويزن الاستهلاك بين التقتير والترف ما يبارك الطلب ولا يطغى به . ويدرج المشروع الاقتصاد فى سياق من سائر أهداف السياسة الشرعية تحقيقا للاستقلال الذى تعز به البلاد وتنصلح دون انعزال عن التعاون الدولى العادل أو التوحد الصالح مع الآخرين ، تمكينا للاستقرار السياسى والقانونى والأمنى لتستقر معايير القيمة وأحكام المعاملة فى الكسب والعمل والاستثمار وليطمئن المجتمع على نظام حرمة المال ومسئوليته .

* * *

الأمـــــن :

ويسوقنا السياق إلى استقرار الأمن بالسودان . فالخوف هاجس يؤرق طمأنينة الحياة الاجتماعية ، واضطراب الأمن السياسى يكاد يزلزل الأوضاع السياسة والاقتصادية ، ومخاطر الأمن القومى تهدد سلامة الأراضى والثغور . إن الأمن أول حاجات الإنسان وأكبر وظائف الدولة ولازمة قصوى لأحكام صياغة بناء حضارى دينى . لكن نزاع الجنوب ما ينفك تؤججه الحمية وتمده المكايد الدولية ، وقد أحال الجنوب إلى بؤرة من الاضطراب والخوف فتعطلت التنمية وتعوقت إمدادات الغذاء والتموين وانهارت الخدمات الاجتماعية فى مواطن كثيرة فاندفعت الهجرة خارجة إلى الشمال . ولما مد التمرد

ذراعه إلى الوسط وقعد قصور الإمكان بالدولة عن تأمين الناس اضطروا إلى الدفاع الأهلى المباشر يجيشون القوة ويتوافر السلاح من أثر النزاعات حول السودان مما أشاع الحرابة والنهب المسلح بأقدار لم يعهدها السودان الآمن . ولما ازدادت الهجرة إلى المدن خوفا وجوعا ما عادت مرافقها الإسكانية والأمنية تستوعب النازحين الذين حاصرتهم عوامل الاقتراب الحضرى والعطالة والسكن العشوائى والحرمان والفوا المدينة عاطل من حكم القانون الرادع لتعطيل حدود الله فازداد فشو الجرائم وانتشر الخوف .

إن موقفنا من قضايا الشريعة والجنوب والاقتصاد قد تقدم لكننا نؤكد فى سياق آثارها الأمنية ضرورة التعويل على القوات النظامية الفعالة حافظا للأمن من الفتن الداخلية . ولئن كان قيام قوات للدفاع الأهلى ضرورة مقبولة فإنها إن لم تعبأ إلا بالحمية القبلية قد تتجاوز الدفاع وتنقلب عنفا أهوج يسفك الدماء ويأخذ المذنب والبرىء إلا أن تتشكل بهيئة محلية غير عرقية وتترشد بأخلاق الدين والتقوى العاصمة وتؤطر بالإشراف الوثيق من القوات النظامية أو بالإدراج فيها . وبين يدى المؤتمر جزء من ورقة أمنية دفاعية أعدتها إدارات فنية بالجبهة .

* * *

العلاقات الخارجية :

لا ينفك أمن السودان عن علاقاته الخارجية بل لا ينفك اقتصاده وقضية الجنوبية . ولا عجب أن دقت أو تعقدت أو أزمت مسألة العلاقات فالعالم تتوثق عراه وتنبسط عليه هيمنة المخططات الكبرى . والبلد كثير جيرانه محاط بالتوترات يعانى ضعفا فى معاشه ودفاعه ونظامه . وغواشى التدخل تتوارد عليه من تلقاء فصائل سياسية وعقائدية تمتد فروعا من الخارج وجهات أمنية تندس وعناصر عسكرية أجنبية تتسلل أو تهدد أو تغزو وقوى اقتصادية تضغط قبضا أو بسطا . كل تلك مخاطر على استقلال السودان السياسى والاجتماعى والاقتصادى وعلى مصائر وحدته وأمنه .

ولقد أصدرت الجهات الفنية بالجبهة ورقة جامعة فى سياسة السودان وعلاقاته الخارجية : فيها تأصيل لفقة العلاقات العالمية وتفصيل للأهداف الوطنية والمبادىء الدولية للسياسة الخارجية بيان لمواقفنا من دوائر العلاقات الأقرب – العروبة والأفريقية والإسلام الأبعد – العالم الثالث والقوى الكبرى ، ومن ثم القضايا المعنية التى تبرز فى الساحة الدولية وتعنينا وسياسة الجبهة المقترحة إنما تؤسس على إدارة أصالة واستقلال تقاوم الحتمية المزعومة لعلاقات الاستكبار والاستضعاف ولكنها إرادة استقلال لا انعزال لأنها تستمد من قيم عالمية المدى مشتركة مع الشعوب . فالجبهة تقترح وتمارس سياسة فعالة حملتها دبلوماسية شعبية نشطة فى الحوار والاتصال والزيارة مع بلاد عربية وأفريقية وأسيوية وشرقية وغربية .

ولما كانت كثافة الضغوط الدولية واضطراباتها واعتباراتها المتناقضة تغرى أحيانا بالانشلال والانخذال السلبى ابتغاء السلام واتقاء الانحياز فإن السودان يلزمه سياسة حاسمة واضحة تتصل بالاطراف جميعا بلا قطيعة دون أن تحاول استرضاءهم جميعا . وليعرف الناس أن سياستنا تؤسس على مبادىء ثابتة وحيثيات موضوعية قياما بالقسط وشهادة لله لا تميل ولا تلوى لشنأن أو مودة . ولئن قامت السياسة الخارجية الدينية على واقعية غير حالمة فى عالم مركب من المصلحة والقوة ، فينبغى ألاّ تطوحها دفوع الرغبة والرهبة العارضة أو تلوحها الفرص المنتهزة .

إننا نلتمس علاقات أعمر ونطمح فى الآجلة إلى وحدة إقليمية أتم مع من حولنا بوشائج الجوار والدفاع والثقافة والمصلحة : وحدة على وادى النيل مع مصر وعلى البحر الأحمر مع المملكة العربية السعودية واليمن ، وإلى الصحراء الغربية مع ليبيا وتشاد وعلى القرن الأفريقى شرقا وفى الشرق الأوسط الأفريقى جنوبا . ونريد فى العاجلة إعمار الجامعة العربية ولو على الثقافة والأمن القومى حتى تتم الوحدة العربية وتوثيق تنظيم الوحدة الأفريقية ولو لصالح التنمية والأمن المشترك وتطوير المؤتمر الإسلامى من الصلة الدبلوماسية نحو توحيد دار الإسلام .

أما هموم الساعة من حولنا فالحرص على تأمين تشاد حتى تفرغ لتوطيد استقرار وحدتها ونمائها ونرجو من أصدقائنا فى ليبيا الذين عرفنا طيب نياتهم من نصرتنا أيام المحنة أن يكفوا أيديهم ويراعوا

حرمة الأراضى جنوبهم . وإن كانوا يأخذون على إخوانهم فى تشاد الاستنصار بمدد غريب فإن كف الحرب أدعى أن يغنى عن ذلك ويرجى بالعوض فى القريب عن الغريب وإن المنطقة المشتركة بيننا والشقيقتين واحدة لسكانها وثقافتها وطبيعتها فهلا أحلناها إلى ساحة ود وتعاون واتحاد .

وإننا لنحرص من ناحية الشرق أن تسحب أثيوبيا ذراعها الداعمة للتمرد السودانى وألا تؤاخذنا أن كانت القوميات التى حشرت فى الامبراطورية القديمة بعنصريتها وطائفيتها تتحفز اليوم لإثبات ذاتيتها . فلو أن أثيوبيا سلكت غير الطريق القديم وتهيأت بسماحة سياسة ومرونة نظم لوحدة خطة أمن ووفاق وطنى . أما قضية ارتريا فهى ليست قياسا على قضية الجنوب حتى تساومنا بها الجارة لأنها قضية دولية وشعبها موصول بالسودان من قبل اللجوء الكبير بوشائج الدم والثقافة والتاريخ . وإن السودان لقادر على إيذاء أثيوبيا كما تؤذيه بالاذاعات العادية والامدادات والتسهيلات للمعارضين ولكن حرمة الجيرة ومحاذير استشراء الفتنة وضرورة صرف الهموم والطاقات إلى إغاثة الخائفين والنهضة للبائسين تدعونا جميعا إلى خطة حسنى من التراضى والتعايش بل التعاون الموجب .

إننا ننظر إلى بؤرة العنصرية فى الجنوب الأفريقى ويدها الآثمة التى تمتد إلى دول مواجهة وإلى ما يوافيها من تسامح أو دعم غربى وما يغريها من ضعف أفريقى بل ننظر إلى حال أفريقيا الغالب التى ضربتها مأساة السياسة والاضطراب وضراء المعاش والاستقلال .

ثم ننظر إلى الساحة العربية فيؤسينا فجور الخصومة وحب القطيعة

فى كل مكان واضطهاد الحركات الإسلامية هنا وهناك والحروب الأهلية فى لبنان وجنوب اليمن والصحراء الغربية ولكن مأساتنا الكبرى ماتزال فى فلسطين التى ضيعها هوان حضارى فى كياننا العربى وتعويل عاجز على شرق يمدنا أو غرب يسترضى لنا الصهاينة وقد غار الجرح حتى بلغ هذه الأيام أعماق الفطرة عند شباب فلسطين الذى ما وفينا واجب التجاوب معه فقد بردت قلوبنا من كثرة القول بلا عمل ونعومة الدبلوماسية بلا وقع . لكن الشباب استفزت فطرته فالتمس القوة فى دينه والعزة تحت رايته وثاب بالقضية بعد الكفاح إلى الجهاد فمس قلب كل مسلم فى العالم بما يبشر بدفع أقوى لصالح فلسطين ، كما ثاب بها من ضرورات المساومات إلى نصابها الأصيل ألاّ سلطان لليهود فى أرض غصبوها وأخرجوا سكانها ولاحق لهم إلا فى العيش المعتاد فى بلد أهله أولى به . إننا فى الجبهة نقدر أن الدول لاسيما فى المواجهة ربما تضطر إلى أطروحات ذات فرصة فى القبول الدولى مادام العرب عاجزين عما هو حق وأولى ولا نريد لذلك أن نزايد أو نؤاخذ . لكن لا يلزمنا أبدا أن نحتبس فى حكم الضرورات أو نسلم بمقتضيات العجز العربى والقوة الصهيونية لئلا نذعن للأمر الواقع ، فإن الاعتصام بالمواقف الأصول ويؤمن بعضنا يحصن عزائمنا من أن تقتلها المساومات أو توهنها الاستسلامات للضرورة الراهنة وليبق الحق قائما لعل الله يهىء تبديلا بسعى قاصد أو من حيث لانحتسب فى الحال العربى والإطار الدولى فنسترد فلسطين كما استردها أسلاف لنا بعد صبر طويل وجهاد جليل .

إننا لننظر إلى آسيا فنجد المسلمين يصيبهم الضر فى القارة الهندية وفى الأقاليم والجزر الشرقية ولكننا نذكر أفغانستان خط الإسلام الثانى الذى تسعى لاجتياحه روح قيصرية جديدة لتجوز إلى خطوط أخرى إن الجهاد الأفغانى قد ضرب لنا مثلا من قضية تولاها أهلها ولم يسلموها لدبلوماسية المحافل التى تساوم وتقاسم فى كل شىء ، بل حملوها بجهاد ذكرنا جهاد الجزائر لولا شراسة العدو الداخلى وقرب الخارجى . وقد أحيا الجهاد الأفغانى سنة كادت تموت فينزع سلاح المسلمين الأمضى . إننا حريصون على وحدة المجاهدين ونصرتهم وعلى دفع اتجاهات السلام نحو حل لا وصاية فيه على الشعب الأفغانى فى تقرير مصائره السياسية وإننا لنذكر هنا ونشكر ما أعطت باكستان وأهلها للجهاد وما أعطت السعودية وأهلها ودول الخليج وودنا لو قام فى الخرطوم مكتب لأفغانستان المجاهدة يمثل روح الجهاد فينفعنا قبل أن يجر إليها نفعاً .

وإننا لننظر إلى العالم فنجد الصين بوعى جديد ونرجو لها مكانة كبرى لأنها لا تحمل ضغينة صليبية أو استعمارية على الإسلام أو على شعوب العالم الثالث التى هى من صفها وقد تكون قدوتها فى التطور والتحرر من هواجس الهوس الاشتراكى والفساد الرأسمالى . ونتمنى للاتحاد السوفيتى أن يمضى إلى غاية شوط التحرر لصالح شعبه ولصالح المسلمين المضيعين والقادرين بالحرية أن يكونوا له جسر صداقة مع عالم الإسلام . وإننا لننشد ودا مع أمريكا ودول الغرب الأوربى التى يراودها أحيانا الشر بالإسلام والإصرار على الاستكبار وتغشاها أحيانا

أخرى نفحات إنسانية خيرة يمكن أن تحيل العلاقات الدولية إلى عدل وسلام وتعاون صادق .

ثم يبقى جرح الخليج الدامى من أكبر المآسى فى تاريخ الفتن الإسلامية . لقد كان لأول العهد أيام الثورة الإسلامية الظافرة فى إيران نشارك العالم الإسلامى بل نسابقه الابتهاج والاستبشار بسقوط نظام الردة والكفر والرجاء بإن تمضى الثورة قدما تحق الحق كما أبطلت الباطل لتكون قدوة بالسلب والإيجاب . ولكن التدافع الداخلى والخارجى خيب بعض هذا الرجاء ولقد كنا قد أخذنا صراحة على الإخوة فى العراق أن صدرت منهم مبادرة العدوان مهما كانت المبررات التى ساقوها وأسميهم إخوة متغاضيا عن حماقة بعض المحسوبين عليهم لأنهم فعلا كذلك فى حساب الملة والتاريخ وإن المفارقات المذهبية لتتلاشى من نظر بعيد مهموم بأصول الهوية العربية ومصائرها . لكننا عدنا حين استردت إيران أراضيها ورضيت العراق بالرجع إلى الوفاق القديم – عدنا فأخذنا على الإخوة فى إيران تطوير الحرب حتى أصبحت عدوانا وتجاوزا ، وأخذنا عليهم التمادى فيها مهما ساقوا من مبررات ، وإهمال كلمة السلام من المسلمين ومن سائر العالم ونناشدها أن تكف عن الحرب وتفيىء إلى التسالم والتحاكم فنحقن الدماء وتوفر الطاقات وتستدرك استقلال المسلمين التى قد تضيعه ضرورات الدفاع وتفوت الفرص على شيطان الفتنة الطائفية والشعوبية بين المسلمين . ويكفى أن آثار الحرب قد امتدت إلى الحرم الشريف الآمن قبلة هدانا ومحور وحدتنا ورمز أصولنا فغدا ساحة

لتظاهر وفسوق وجدال وقتال لا يليق بحرمة المكان ولا طمأنينة الشعيرة العظيمة ونسمع من يذكر تدويله كأننا نريد أن نجرى عليه ما جرى على شئون وقضايا دولناها وأودعناها أمانة فى الجامعة العربية والمنظمة الإسلامية فضيعناها ضياعاً حفظ الله الحرم معموراً محفوظاً مخدوماً بفضل الله وفضل عباده .

ونعود إلى السودان وصفحته الطافحة بالتحديات ، هويته فى جدال بين الانتماء إلى الإسلام والتشويش الشيوعى والعنصرى العربى والزنجى والاستلاب الغربى ، وحكمه دورة من الأنظمة الحزبية فالعسكرية فالانتقالية كل أمة تلعن أختها وتهدم لتبنى من جديد ، وأوضاعه مأزومة فى الأمن والوحدة والمعاش . ذلك أنه بلد ضخم مترامى الأقاليم منقطع الاتصال مركب من عصبيات لسانية وعرقية وثقافية شتى تحيطه دول شتى غير مستقر بعضها .

لكن الأهم أن مسيرته الديمقراطية التى أثارت الغيرة والإعجاب مهددة بمغامرات الطامحين تدخل إلينا من ثغرات الفشل والفساد فى واقعنا المتعسر إلا أن نكون اتعظنا بعبرة التاريخ . بل الأخطر أن قد لاحت مخاطر لم نكن نعهدها ولم نعهد حيلة لتجاوزها كما نتجاوز الطاغوت بالانتفاضات الشعبية ، وهى مخاطر تستهدف قيام السودان بأصل وجوده سالم الأراضى موحد الكيان .

ولكن صفحة السودان يلوح فيها وعد كبير على قدر هذه التحديات ، ونريد نحن فى الجبهة الإسلامية القومية أن نوافى هذا الوعد بمشروع إحياء دينى يحسم خيارات التوجه المتنازعة وبناء يبدل



وإن الجبهة تمد يدها خارجيا إلى كل مسلم أخ فى الملة أو الدعوة أو الجهاد تعاضداً على البر والتقوى وإلى كل أخ فى الإنسانية تحاوراً على الحق وتعاونا على الخير وسلاماً .

وإننا لماضون بإذن الله بعزيمة الصادقين وصبر المتوكلين المطمئنين بوعد الله واثقين أن سيتمكن الإسلام فى السودان غير بعيد وأن سيحوز وأن سنعيد بسيرة الإسلام الأولى التى اختار الله لها أمة أمية قليلة ذليلة ميتة الحال منبتة الأوصال فأحال فرقتها وحدة وخوفها أمنا وذلها عزا وفقرها غنى وضلالها هدى وركب بها الأقدار والآفاق فبدلها تبديلا وجاوز بها سعد الدنيا إلى ما هو خير وأبقى من سعد الآخرة .

وآخر دعوانا أن يجزيكم الله خيراً إخوة فى الوطن أعزة وضيوفا كراما وأن يبارك الله لنا فى مؤتمرنا هذا ويلهمنا فيه الرشد ويوفقنا للخير .

والسلام عليكم ورحمة الله ... .

الخرطوم فى ٢٤ / جمادى الأولى / ١٤٠٨ هـ
الموافق : ١٤ / يناير / ١٩٨٨

الفهـرس

الموضـــوع	صفحة